العقدة الاولى التي كانت تحزّ في قلبه هي عقدة الحياة. واذا قلت « الحياة » وجب عليّ في الحال ان اميّز بين معنيين منفصلين لهذه اللفظة. فثمّت « الحياة » بمعناها الروحي الشخصي الكياني. هذا هو المعنى الذي عناه شكسبير وغرته مثلًا عندما استعملا هذه اللفظة ، وهذا هو المعنى الذي قال به ارسطو عندما اكّد ان الحياة الحقة انما تنحصر في الله وحده . اما الحياة عند برغصون فلها مفهوم آخر يختلف كل الاختلاف عن هذا المعنى الروحي. تتركب « الحياة » البرغصونية من عنصرين مختلفين: العنصر الاول هو ما يقوله علما البيولوجيا والسيكولوجيا الايجابيان بشأن الحياة ، والعنصر الثاني هو ما يستخرجه برغصون نفسُه من مشاهدة ذاته وتحليل حالاته النفسية المباشرة. واذن المصدران الأساسيان لمشكلة برغصون الاولى هما علم الحياة بمعناه الاوسع والتحليلات السيكولوجية الانعكاسية .

من هذين المصدرين يخلص برغصون الى تصوير خاص لكُنه الحياة . الحياة بحسب هذا التصوير هي نزوع مستمرّ وثّاب الى الخلق والابداع . ولذلك كل تعليل للتطوّر البيولوجي قائم على الميكانيكية ، اي على اعتبار عوامل الأقدار المتخبطة والصدفة العمياء أنها هي العوامل الحاسمة في تسيير التطور ، وكل تعليل قائم على الغائية ، اي على اعتبار ان الحياة تتطوّر وفقاً لغايات واضحة تضعها امامها ، هذان التعليلان للتطور يقصران كل التقصير في نظر برغصون عن حقيقة التطور . فبدلًا من أن تكون الحياةُ رهنَ الصدفة والاقدار ، كما يزعم الماديّون ، هي في حقيقتها مبدأ ايجابي يكافح المادة ليل نهار بغية التحرّر من عبوديتها. وبدلًا من أنْ تكبّل الحياةُ نفسها بصور واعية ترمي الى تحقيقها ، كما يذهب اليه [illegible] ، هي في ذاتها قوة مندفعة لا تستطيع ان تعيّن من الآن جميع ما ستفضي [illegible] . سرّ الحياة اذن يقع في دافع الحياة ، في اعتزامها على تذليل كل عقبة تعترضها في تفتحها الزمني ، في تطوّحها الحرّ نحو المستقبل المفتوح ، في هذا الزخم المريع الذي تفتّح في التاريخ عن هذه الألوان اللامتناهية من النبات والحيوان الى ان استقر اخيرًا فيّ وفيكم وفي برغصون نفسه ، اي في الانسان ، حيث الخلق والابداع يفعلان بحرية لا عهد للحياة بها من قبل. من كل هذا ينتج معنا أننا لا نكون انفسنا ولا نعرف الحقيقة ولا ننفذ الى سر الوجود إلّا اذا اندفعنا

بسذاجة طبيعية بريئة مع هذا الزخم الحيوي الوثاب ، خالقين ما سمحت لنا الظروف بخلقه ، مُبدعين ما كان كامناً في طيات الحياة التي نحملها .

في هذه الفكرة الأساسية ، التي استخلصها برغصون من علمَي البيولوجيا والسيكولوجيا ، ومن مشاهداته الانعكافية لنفسه ، تتصور وتتبين جميع فكره الأساسية الاخرى. فالبصيرة او الحدْس هي مقدرتنا على الرجوع المباشر الى تيار الحياة الخلاق واشتراكنا في عملية خلقه. ونحن ليس بوسعنا ان نقدرَ الاشياء قدْرًا كلياً ، ولا ان نشعر بالحياة الحرة تنبضُ في كل شيء في العالم ، نحن لا نستطيع ان نعي الماضي المتراكم المخبوء في كياننا ، إلّا عن طريق البصيرة. وبما ان البصيرة تقودنا هكذا الى حركة الحياة المبدعة فهي مفتاح الحقيقة الاوحد. اما العقل فلا يستطيع ادراك الحقيقة لانه لا يُكبُّ إلّا على الاجسام الجامدة ولا يعقل الا فكرًا غير متحركة ولا يفهم إلّا ما ينطبقُ على هذا الفضاء المتقطع الميت ، بينما الحقيقة هي في الحياة والحركة والزمن . الحياة تُحيا ولا تُعقل ، تبدع ولا تدرَك ، تنطلق حرة نحو المستقبل دون ما تبعة لعقل يُرشدها او وعي ينير لها السبيل . الحياة لا تُفهم ، اي لا تكون ، إلّا بالبصيرة ؛ والحيّ هو من يخلق ويُبدع ، لا من يتفلسف ويفكر .

على هذا المنوال تنتظم جميع عقائد برغصون الأساسية ضمن اطار الحياة . ولو كان لدي مُتسع من الوقت لحاولت ان احبُك فكرةَ الزمن والذاكرة ، فكرةَ الماضي والمستقبل ، فكرة التغيّر المطلق وما يستلزمه من ضرورة الحرية والاختيار ، فكرة الخلق الروحي ، فكرة البقاء والتراكم — لو كان لدي متسع من الوقت لنسجتُ جميعَ هذه الفكر البرغصونية الأساسية في نظرة نظامية واحدة .

اما مركز برغصون في العالم الفلسفي فلا اظنني مغالياً اذا زعمت أنّ هذا الراحلَ العظيمَ اعمقُ جميع الفلاسفة الاوروبيين المعاصرين أثرًا واوسعهم شهرة في الاوساط الفلسفية الحرّة. ويشهد بذلك ائمّةُ الفلاسفة الانكلوسكسونيين . هذا وليم جايمس مثلًا يقول في كتابه « كون متعدّد » إن برغصون احدث في

نفسه ثورةً اساسية ادّت به الى انكار مزاعم العقل في البلوغ الى الحقيقة ، وان الانسان بعد قراءة برغصون تعتريه رعشة من الحرية الروحية لم يكن له عهد بها من قبل. ويستطرد جايمس الى القول بان كل صفحة من صفحات برغصون تفتح امامنا افاقاً جديدة ، فكلامُه « كنسة الصباح وكتغريد العصافير »[1]. وهذا صموئيل الكسندر يقول في كتابه « الفضاء والزمان والألوهة » إنه ما من احد خدم الفلسفة كما خدمها برغصون في تأكيده على ضرورة اعتبار الزمن حقيقة نهائية[2]. والجنرال سمطس ، الرئيس الحالي لوزارة جنوبي افريقية ، يقول في كتابه « الكلية والتطوّر » إنّ برغصون المعلّ فلاسفة التطوّر واشدّهم تأثيرًا في عصرنا هذا[3]. وفي كتابه « الفلسفة والحضارة » يقول جون ديوي إنّ كلّ واحد يقرأ اليوم برغصون[4]. واخيرًا يعترف استاذي هويتهد في مقدّمة اهم مؤلّفاته « العملية والحقيقة » بانه مدين في الدرجة الاولى لبرغصون[5] ، ومن يدرس هويتهد يشعر بتأثير برغصون في كل صفحة من صفحاته على وجه التقريب .

ويسرني بهذه المناسبة أنْ انقل اليكم خبرًا كتبياً وهو ان الترجمة الرسمية المعتمدة في اللغة الانكليزية لاشهر كتب برغصون ، اعني « التطوّر الخلّاق » ، قام بها رجل اسمه ارثر متشل تحت اشراف برغصون ووليم جايمس في آن واحد. وقبل رجوعه الى اميركة ودراسته للفلسفة في جامعة هارفارد وقيامه بهذه الترجمة ، كان السيّد ارثر متشل معلماً بسيطاً للغة الانكليزية في جامعتنا هذه ، هنا في الدائرة الاستعدادية ، بين سنة ١٨٩٤ وسنة ١٨٩٦ .

(١ William James, *A Pluralistic Universe*. New York, 1928, pp. 265, 266, 219

(٢ Samuel Alexander. *Space, Time and Deity*. London, 1920, vol. I, p. 150

(٣ General Rt. Hon. J. C. Smuts, *Holism and Evolution*. New York, 1926, p. 92

(٤ John Dewey, *Philosophy and Civilization*. New York, 1931, p. 202

(٥ Alfred North Whitehead, *Process and Reality*. New York, 1930, p. VII

اما اثر برغصون في الفكر العربي فإخاله اثرًا غير مباشر ، ذلك لاننا نقرأه في اللغتين الفرنسية او الانكليزية ، ولأن مصنفاته لم يترجم بعدُ واحدٌ منها الى اللغة العربية . ولا اظن دراسةً واحدةً وافية ظهرت بعد في لغتنا عن هذا الفيلسوف ، هذا اذا استثنينا بضع مقالات مستعجلة نُشرت في بعض المجلات هنا وفي مصر . واذا ذكرنا ان مؤلفات برغصون والدراسات التي أُلفت في برغصون في اللغات الاوربية تُحصى بالمئات ، واذا ذكرنا كذلك ان برغصون ليس بالفيلسوف الوحيد الذي طبع الفكر الاوروبي والذي لا نكاد نعرف عنه شيئاً ، ادركنا مقدار الجاهلية اللامتناهية التي نتخبط في ظلماتها وعظمَ العمل المنتظر من كلّ طالب للحقيقة منا في المستقبل . ومع ان اثر برغصون المباشر في الفكر العربي يكاد يكون عدماً فاثرُه غير المباشر واضح في بعض الكتاب والشعراء الرومنطيقيين الثائرين على العقل واحكامه ، المنفصلين عن التراث الفلسفي ، المؤلهين للغريزة والبصيرة والعفوية وكلّ ما يمتّ الى العاطفة والشعور الذاتيين .

ومع ان برغصون لم يبحث في نظامه الفلسفي امورًا احبُها في غاية الأهمية ، ومع انه لم يؤلف فلسفتَه من داخل التراث الفلسفي الايجابي ، فاظن اننا نستطيع في العالم العربي ان نستفيد من حكمته فوائد ثلاث ، اكتفي بمجرد الاشارة إليها :

اولًا تأكيدُه على حقيقة الروح وتعاليها على المادة ، وذلك في وجه المادية والميكانيكية الطاغيتين على العالم . يقول برغصون إن المادة وما يمتّ اليها كيان منحطّ بالنسبة الى الروح النزاعة المبدعة ، واذن من يتجهْ ماديًا فهو متجهٌ آخرَ الامر نحو الفناء والعدم ، مهما تفنن في ارجاء اجله المحتوم . اما من يتجهْ نحو الروح الوثابة ، الروح التي دأبُها محاربةُ المادة بجميع مظاهرها ، فهذا لا خوفَ عليه ولا خطرَ على تدهوره .

ثانيًا تأكيدُه على حقيقة الزمن وانه لا يقع في تسلسل الاشياء تسلسلًا خارجيًا ، بل في انبثاقها انبثاقاً داخليًا تراكميًا . الزمن هو نمو الحياة المتواصل . الزمن هو الروح الخالقة المبدعة ، لا ما تخلق وتُبدع . الزمن هو الانطلاق الحرّ

نحو المستقبل ، لا الحنين الرجعي للماضي . والماضي ذاته ليس ماضياً الّا بقدر ما هو حيّ ينبض في كيان الحاضر المندفع نحو المستقبل . واذن الماضي انما يوجد لخدمة المستقبل عن طريق الحاضر .

ثالثاً اذا كان جوهرُ الاشياء يقع في عمليّة تغيّرها فكل من يحارب التغيُّرَ الصحيح ينصبُ نفسَه عدوّاً لجوهر الاشياء ، وجوهر الاشياء بالطبع لا يقهر ، لانه هو الحقيقة . وحريّ بنا نحن في العالم العربي ان نتعلم امثولة التغير ، وان نؤمن بانا بالفعل قادرون على تغيير انفسنا ، وان قرارات حياتنا الهامة لم تُتخذ كلُها بالنيابة عنا في الماضي ، وان خطوط كياننا لم تُكتبْ كلّها منذ الازل . برغصون يعلمنا أنَّ الحرية من خصائص كياننا الطبيعي ، فـاذا اردنا نستطيع نحن ان نقرّر مصيرَنا بايدينا .

يشهد العالم في عصرنا ازمة وثورة : ازمة تتزايد وتشتدّ ، وثورة تجتاح جميع الاصقاع . ويشهد نضالاً مستمراً بين البلدان المختلفة ، وضمن نطاق الدولة الواحدة ، بين مختلف الطبقات والاحزاب . « تطاحن لا يعرف هدنة ... فكأنّ العالم كلّه ينتادى من اقصاه الى اقصاه ليلاشي بيده ما وصلت اليه البشرية حتى الآن من تقدّم ورقي وحضارة »[1] اذ عمّت الفوضى جميع مظاهر الحياة البشرية في مختلف البلدان ، وهي على ازدياد امتداد واستحكام ، بقطع النظر عن الحرب التي جاءت خاتمة ما كنا نشهده . من ترى وسوس للبشر حتى هبوا جميعهم يفتشون عن ضالّة لهم ، فاتبعوا سبلاً متنوعة متناقضة ؟

اما نحن فانا معتقدون وواثقون بان لجميع هذه المشاكل حلّاً ، مهما بدت متناقضة ومتفرّقة . وان هذا الحلّ يرتكز على علاقات اسسها العدل والمحبة بين البشر . فيعمل الافراد ، ويعمل الحكام على احيائها . هذه الاسس وتوطيدها ، اولئك في قلوبهم ، وهؤلاء في قلوبهم ، وبفضل شرع يسنّونه .

---

١) المحامي يوحنا مارون : الفوضى الاجتماعية ، ص ٢ .

القضية الاجتماعية

الا ان الافكار تتجه نحو معضلة تشغل اذهنة الجميع وتستغرق اهتمامهم . الا وهي القضية الاجتماعية لا شك في انها تتناول جميع مظاهر الحياة الاجتماعية ، وتحدّد لكل من اعضاء المجتمع واجباته وحقوقه منعاً للمنازعات والخصومات . لكن هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » قد اتخذت اتجاهاً جديداً فاقتصر في استعمالها على مظهر من مظاهر الحياة الاجتماعية الى حدّ انها اصبحت مرادفة لهذه الكلمات « قضية العمل » ونحن نعرّفها قائلين : انها تبحث في العلاقات بين اصحاب العمل والعمّال وتحدّد واجبات كل من الفريقين نحو الآخر ، باحثة في اجور العمال ، وساعات عملهم ، وما اشبه ذلك . وكلما وردت هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » في بحثنا فهمناها وفقاً لهذا التعريف الاخير .

القضية الاجتماعية اليوم

عمل الانسان دائماً بيديه ، وشهدت الانسانية ، لالوف من السنين خلت ، مستخدمين ومستخدَمين . وشهدت ايضاً منازعات بينهما . الا ان الشرّ بلغ اشدّه من التفاقم والحدّة في منتصرم القرن الماضي ، ومستهلّ القرن الحاضر ، ولا يزال على ازدياد « اذ الخليقة باسرها تئن وتتمخض حتى الآن »[1] رازحةً تحت عبء ثقيل ، يكاد يؤدّي الى خراب وتدمير واسعي النطاق شاملين قد يعمّان العالم باجمعه .

يقول البابا بيوس الحادي عشر في رسالته « تحديد النظام الاجتماعي » واصفاً هذه الحالة ، ما يلي : « في اواخر القرن التاسع عشر ادّى التطوّر الاقتصادي وتقدّم الصناعات في اغلب الامم الى ظهور الهيئة الاجتماعية منقسمةً الى فئتين ازداد تباعدهما جلاء مع الايام : فمن جهة فئة قليلة من الناس يكادون يتشعون بجميع ما توفره لهم الاختراعات الحديثة من اسباب الراحة . ومن جهة اخرى

---

(١) رسالة القديس بولس الى الرومانيين .

فئة مؤلفة من جماهير العملة الذين ابهظتهم الفاقة وما تجرّه من الويلات وهم يحاولون عبثاً ان يفلتوا من ضيقاتها.

« وقد هان على الذين توافرت لديهم خيرات هذا العالم ان يرتاحوا الى هذه الحالة لانهم كانوا يرونها نتيجة ضرورية للنواميس الاقتصادية ولذا كانوا يريدون ان تلقى على عاتق الرحمة وحدها كل العناية بتخفيف وطأة ذلك البؤس كأنّ من واجب الرحمة ان تسدل ستراً على مخالفة العدل التي لم يكن الشارعون يغضون الطرف عنها فحسب بل كانوا ايضاً يقررونها مراراً. »[1]

لذلك لا يجوز اهمال هذه القضية ، لا بل يجني على المجتمع من يتناساها جناية لا تعرف عقباها . لان الشرّ قد بلغ مبلغه فاستفاق العمال كمن سبات عميق وشرعوا ينظمون صفوفهم ويؤلفون النقل ، ويرفعون اصواتهم عالياً مطالبين بحقوقهم . وويل للعالم اذا وجد العمال في مختلف البلدان من يوحد كلمتهم ويقرّبهم فيسير بهم على طريق الثورة والتدمير فيشفون بالدم ما في نفسهم من تعطّش الى العدل والمحبة . وقد خبرت بعض البلدان امثال هذه الثورات فعادت على من قام بها وعلى من وجهت اليه ويلاً وتدميراً وخراباً.

موضوع بحثنا

قلنا انه اقتُصر في استعمال هذه الكلمات « القضية الاجتماعية » على قضية العمل . الا انه بالرغم من ذلك لا يزال مجال البحث واسعاً يستغرق مقالات متعددة اذ يتناول اسباب الفوضى ، وهي كثيرة ، ويتدرج الى الحلّ المناسب لها . ويظن ان كثيرين بحثوا في هذا الموضوع وابدوا رأيهم فيه ، تعدّدت الآراء والنظريات . فمنها النظرية الاقتصادية الاباحيّة ، ومنها النظرية الاشتراكيّة ، واخيراً الحلّ المستمدّ من التعليم الكاثوليكي . وكل من هذه الآراء يتطلب ايحاثاً . ويزيد الموضوع اتساعاً ان الامة تتكيّف في كل بلد بميزات خاصة يجب مراعاتها اذا ما اردنا ان نجد حلّاً موافقاً .

---

١) البابا بيوس الحادي عشر : تجديد النظام الاجتماعي (الترجمة العربية) ، ص ٢

اما نحن فنعرض في هذا المقال الى الاسباب التي ولدت هذه الازمة خاتمين بالذكر التقدم الصناعي ، وما احدثه من ثورة في حياة العامل الفردية والعائلية وفي علاقاته مع صاحب العمل ، وننتهي الى ذكر الاسباب التي سهلت لها السبيل وساعدتها .

الا ان مقالنا لن يكون بحثاً ضافياً في « الآلة » فنعدد منافعها واضرارها مقارنين بين هذه وتلك ، واخيراً نشجبها او نبررها . لا : ان الآلة امر واقعي لا سبيل لانكاره ، ولا سبيل لاطراحها شئنا ام ابينا حبذناها ام قبحناها . الا انه يجوز لنا ان ندرس تأثيراتها في عالم العمل . ولا ندعي ان ما سنبينه في هذا الموضوع كان ولا شك واقعاً لو لم يوافق ازدهار الصناعة شيوع آراء فلسفية فاسدة ونظريات اقتصادية عقيمة حالت دون وضع حد لاخطار الآلة غير المنكورة .

فما الآلة الا درجة من درجات الرقي الانساني الذي هو في ازدياد مستمر . بل هي برهان ساطع على قدرة الانسان وحدة ذكائه الذي ابدع هذه الغرائب فتقف امامها مدهوشين مأخوذين . ولا مراء ان لكل تطور واسع النطاق تأثيره العميق في حياة الشعوب وقد يؤلف خطراً على توازن هذه الحياة ، اللهم ان لم يعمل الانسان على ملافاته ويحتاط للامر منعاً لاضراره . وقد نشبه هذا الانقلاب بنهر مياهه غزيرة صاخبة بوسعها ان تدمر كل ما يقف في طريقها ؛ وباستطاعتها ايضاً ، بفضل جهود الانسان ، ان تدرّ عليه خيرات فائقة . وهكذا الآلة فما هي الا اداة بين يدي الانسان يستخدمها فتخدمه ، او يستعبد لها فتسوده . اما في الواقع فان الآلة اثرت تأثيرا عميقاً في المجتمع ذهب ضحيته العامل ان في حياته الفردية ، وان في حياته العائلية . لان الانسان لم يعرف ان يستخدم الآلة ولان السلطة لم تع لتضع حداً لشرور تلمسها لمس اليد .

الآلة في حقل العمل

« الانسان شحيح بتعبه كلف بتقليل عمله »[1] لذلك نراه « بفطر طبعه كلفاً

---

١) الموجز في علم الاقتصاد – تعريب حافظ ابرهيم وخليل مطران ١ : ٤٠٤

بصنع الآلات وعلى قدر تنوه وارتقائه تتعدد هذه وتتنوع وتتغرب اجهزتها.»[1] فبينما هو يحدث في بادئ امره «القوس والسهم وشبكة الصيد»[2] لا يلبث ان يسخر «الطبيعة وجنودها من حيوان وماء وريح وبخار وغاز وكهرباء وهواء مضغوط»[3] استزادة لقوته وضناً بتعبه وقد بلغ في هذا المضمار شوطاً بعيداً منذ منتصرم القرن الماضي بفضل الاستنباطات المتعددة وما يسرت من تطبيقات عملية. سخر الانسان البخار والكهرباء فتوصل بواسطتها الى تسيير آلات جبارة ومتنوعة. شمل استعمالها معظم حقول الانتاج فاصبحت واسطة لاستخراج المواد الاولية، وواسطة لتحويرها، وواسطة النقل على مختلف مظاهره. وهكذا سيطرت الآلة فخلقت احتكاراً واقعياً، اذ لم يتردد الرأسماليون في استعمالها بدون أيّة روّية او تحفظ.

تأثير الآلة في حياة العامل الفرديّ

لا مشاحة ان ممكنات الآلة تفوق بدرجات ممكنات العامل اليدوي. فهي تمتاز عنه بسرعة في العمل، مع استخدام يد عاملة قليلة جداً. وقد يكفي ذكر بعض الامثال لتتحقق صحة هذا القول: لنتصور عاملة في لف السكاير. فهي تتوصل بشغلها اليدوي مع الكد والاجتهاد الى تهيئة ٦٠٠٠ سيكارة في ثماني ساعات شغل، بيد ان الآلة تعطي النتيجة نفسها في دقيقتين ونصف الدقيقة فبوسعها اذن ان تهيئ مدة ثماني ساعات عمل ما يتوصل اليه ١٩٢ عاملاً في المدة ذاتها. لذلك اذا استعملنا الآلة اكتفينا بتشغيل عامل او عاملين بدلاً من ان نشغل ١٩٢ عاملاً.

مثل آخر: ليس من يجهل شركة باتا وهي في بلادنا فرع من شركة منبثة في كل البلدان. فهي تستطيع ان تكفي العالم ما يستهلكه من الاحذية. وقيسوا على ذلك جميع فروع العمل ان في الحقل الاقتصادي، وان في الحقل

---

(١) الموجز ١: ٢١٣

(٢) الموجز ١: ١٤٤

(٣) الموجز ١: ١٤٥

الزراعي . فينتج عن ذلك البطالة وهي شر عرفته جميع البلدان فبلغ مجموع العاطلين عن العمل سنة ١٩٣٠ (وهـذا الرقم على ازدياد لا على انتقاص) ٣٠,٠٠٠,٠٠٠ عامل واذا قلنا ان اعالة شخصين او ثلاثة ملقاة على عاتق كل من العاطلين عن العمل فهمنا ان عدد المهددين بالجوع لا يقل عن المئة مليون.

وشر البطالة هذه ليس بحرمان ثلاثين مليوناً من عملهم فحسب ، بل يؤثر على من لم يصرفوا من الخدمـة ان في اجورهم وان في موقفهم ازاء صاحب العمل . لا شك في ذلك لانه يحل آنئذ في العمال ما يحل بكل ما هو خاضع لشريعة العرض والطلب . فكما ان اسعار الحاجيات تتصاعد او تتضاءل بالنسبة الى ندرتها وكثرة الطلب لها . هكذا تمل في اجور العمال . فانها تتصاعد اذا ما ندرت اليد العاملة وتتضاءل اذا ما سهل وجودها ، فكم بالاولى اذا ما كان ما ينيف عن الثلاثين مليوناً من العمال ينتظرون بفروغ صبر ان يجدوا شغلاً . ولا عجب ايضاً والحالة هذه اذا ما اصبح العامل الذي لم يصرف من الخدمة سريع العطب في موقفه ازاء من يستخدمه . لان هذا لا يتردد في صرفه من العمل إذا راق له ذلك ، على يقين من نفسه انه يجد من يخلفه في عمله.

تأثير الآلة في نفسية العامل

لا يقتصر ادخال الآلة في الحقل الصناعي على خلق فئة جديدة ، فئـة العاطلين عن العمل . انما كونت محيطاً جديداً لحياة العامل في عمله اثّر في نفسيته من افكار وعواطف ، دون ان يبدي العامل اية مقاومة ، لانه لم يكن لديه العدة الكافية لمجابهتها . وذلك أنّ تربيته ، وتهذيبه ، وتثقيفه ، لم تخوّله ان ينظر الى الانقلاب الذي شمل حياته نظرة حكمة وسداد رأي ، فرزح تحت عبء الآلة وضعفت معنوياته . كيف لا وقد اصبحنا نفتش عبثاً على الاقل في المدن الكبرى الصناعية عن الصناعة اليدوية وعن تلك الحوانيت الصغيرة الهادئة التي تضمّ تحت سقفها اشخاصاً معدودين يعملون معـاً ، يتحادثون ويتآنسون . هذا كله قد زال واستبدل . . . استبدل بتلك الحوانيت الهادئة المطمئنة معامل ومصانع كبيرة شاسعة جبارة ، بنايات واسعة الارجاء يتيه فيها من لم يألفها ،

فهي اشبه بمدينة منها ببناية . وهي تغصّ بالعمال ليلًا ونهارًا ، وتموج عجيجًا كأنها البحر المتلاطم بما فيها من الآلات والادوات . الوف بالوف من العمال دخلوا تلك المعامل فوقفوا حياتهم في خدمة الآلة ينظمون حركاتهم وسكناتهم وفقًا لحركاتها وسكناتها وهي لا تقف ولا تسكن . فيرى العامل نفسه كأنه جزء منها يحرك يده ويحرك رجله ويحرك جسمه كلما تحركت ، الآلة وان تعب فلا سبيل الى الراحة . فهو مسيَّر لا مخيَّر .

تأثير الآلة في حياة العامل العائلية

فيثقل على العامل عمله ويزيد في ثقله مما يضطره الامر في غالب الاحيان الى ان يرى امرأته واولاده يغادرون البيت صباحًا ليعودوا في المساء وقد انهكهم التعب . ولا سبيل الى الانكار ان الآلة سهّلت سبل العمل فجعلته قريب المنال من المرأة والولد « وقد تغني في بعض الاعمال بالمرأة والطفل عن عشرات من الرجال الاشداء ، الذين ينهكون قواهم دونها »[1] . نشهد هذا الامر في بلادنا . نعم ان مقالنا ينظر الى القضية الاجتماعية نظرة اجمالية تتكيف حسب البلدان ، الّا انه ينبغي لنا ان نأخذ بعض الامثال عما نشهده في هذه البلاد . اين هي تلك الانوال البيتية التي قلما كان يخلو بيت منها ، تديرها المرأة وتعاونها في عملها ابنتها حتى اذا ما كبرت كان بوسعها ان تنسج على النول الذي تجده في بيت زوجها . الّا ان هذا كله قد لا نرى له اثرًا لان البضاعة الاجنبية والمنتوج الصناعية قضت عليه لذلك اضطرت المرأة وابنتها الى مغادرة بيتها والاحتشاد في معامل النسيج . وهل من ريب في ان ذلك التفرق والتشتت في العائلة يضعف الحياة العائلية وينهكها ؟ يعود الرجل من عمله مثقلًا بشغل نهاره ، وهو يودّ ان يرى امرأته تخفّ لاستقباله لتخفف عنه وطأة التعب ، وقد هيأت له كل ما يحتاج اليه ليستعيد قواه فيعاود عمله بنشاط واندفاع . ولكن ظنه قد يخطئ اكثر من مرة ، فلا يجد بيته وفقًا لرغبته . ولا يندر ان تعود ربة البيت

---

١) الموجز ١٥٢ : ١

من العمل بعد عودة زوجها. وربما اشتغل الرجل نهارًا وامرأته ليلًا او بعكس ذلك . فتحدث حالة كهذه صدى بعيدًا في حياة العامل وعواطفه وحبه ، ولا عجب اذا لجأ الى المقاهي والخمارات . . .

ولا لوم على المرأة ، لانها عاجزة عن ان تقوم بسياسة بيتها وتربية اولادها ، ولا على الرجل لان ما يتقاضاه غير كاف لاعالته مع اهل بيته . على ان هذا لا يمنع ان يكون للامر اهمية كبرى اذ الحياة العائلية مهددة بالدمار والانطفاء في ملايين من المنازل. ناهيك عن الحيف الذي يلحق بالفتى والفتاة ولم يتجاوزا بعد الرابعة عشرة من عمرهما عندما ينزعهما المعمل من بين يدي امهاتهما ليلقي بهما في محيط مجهول اقل ما يقال فيه انه مشبوه امره .

تأثير الآلة في الانتاج

واخيرا لا يخفى — وهذه ميزة الآلة الثالثة — ان امكانيات الآلة في الانتاج غير امكانيات العامل بدونها . فتلك تفوق هذه بدرجات اذ باستطاعة الآلة ان تخرج ما تنتجه « بلا حدّ في العدد على مثال واحد وبهذا تبلغ الآلات غاية القوة »[1] . وبما ان المعامل التي تستخدم فيها الآلات لا تحدد انتاجها على الطلب الذي عليها اي انها لا تقتصر على صنع ما يكون قد طلب منها بل تتجاوزه كثيرًا وتعرض ما فاض عليها في الساحات التجارية ، تكيفت الازمة التي يشهدها العالم بميزة خاصة غريبة الشكل ، وهي ان الطبيعة بفضل جهود الصناعة فاضت على الانسان بخيرات وافرة ، اذ تعددت المصانع وكل منها يحاول ان يزيد انتاجه ، بصرف النظر عن مقدرة الشاري الاستهلاكية . وهل يا ترى زادت مقدرة العامل الاستهلاكية ؟ لا . لذلك ليس بوسعه ان يستفيد من هذه الخيرات الفائضة لان مقدوراته الشرائية ضئيلة . ولا عجب اذا نظر بعين الغضب الى صنع يديه لانه محروم منه . ذلك ان المزاحمة بين العامل وعدم تحديد الانتاج يمنعان ارباب العمل عن زيادة اجور عمالهم . ونكاد لا نصدق — الا انه امر واقعي —

---

١) الوجز ، ١٥٢ :

ان سنة ١٩٣٤ انتجت محصولات كثيرة نذكر منها :

٨،٨٦٠،٠٠٠ قاطرة من القمح، ١١٤،٠٠٠ قاطرة من الرز، ٣٢،٠٠٠ كيس من البن، ١٣،٠٠٠،٠٠٠ طن من السكر، ٦،٠٠٠،٠٠٠ خنزير، ٨٠٠،٠٠٠ بقرة.

وقد شهدنا في بلادنا لسنين خلت اقتلاع اشجار الموز.

مع ان ما يزيد عن المئة مليون من العمال لا يأكلون شبعهم.

مساكن العمال

واخيراً اذا جاز لنا ان ندخل مساكن العمال، فاكثر ما نراها بحالة غير مرضية ولماذا ؟

نعم ان الآلة تقتصر على استعمال يد عاملة قليلة ولكن هذا لا يمنع ان تضم المعامل الكبيرة مئات والوفاً من العمال. لان الآلات تتعدد فيها ولان تلك المعامل واسعة الارجاء فسيحة. واذا تعددت المعامل في المدينة الواحدة ومعظمها يبنى في ضواحيها، فلا نعجب اذا عرفنا ان سكان بعض المدن الصناعية تضاعف عددهم بوقت قليل. لان من توافر لديه المال يمكنه بوقت زهيد ان يشيد البنايات ويستجلب الآلات اللازمة الصناعة التي يريد ان ينشئها. ويمكنه ايضاً ان يجد بسهولة العملة الذين يحتاج اليهم. فيتوافد هؤلاء، اما من احياء المدينة، واما من الجبل، فيجدون كل شيء جاهزاً للعمل. الا انهم قلما يجدون بيتاً جاهزاً لسكناهم، فيحدث واحد من امرين : اما ان يجدوا بنايات للاجار فيستأجرونها لقاء ثمن مرتفع لتكاثر الطلبات لها فيكتفي العامل بغرفة واحدة يلجأ اليها مع امرأته واولاده مهما كان عددهم. تارة تكون غرفة نوم وتارة غرفة اكل واخرى ردهة استقبال واما — وهو الامر الثاني — ان لا يجدوا البنايات المناسبة فيتم بسرعة وافرة بناء بيوت قد تصلح لكل شيء الا للسكن فيتكدس فيها العمال وهي اشبه باكواخ منها ببيوت — ضيق في النفس وضيق في المسكن مما يجعل العامل يشمئز من حالته ويفقده كل لذة في الحياة. ولا غرو اذا تكاثرت الامراض والعلات في تلك المناطق التي يحتشد فيها الناس، لانهم محرومون من مناخ جيد واكل مغذٍ.

الآلة وطرق المواصلات

وقد زاد الشر تفاقماً الانقلاب الذي احدثته الآلة في طرق المواصلات. وهذا امر بيّن لا يحتاج الى طول شرح ، فنكتفي بالمقابلة بين القوافل والقطارات او سيارات الشحن لنقل البضائع. وماذا نقول في السفن التجارية التي تؤمن المواصلات بين البلدان المختلفة ، وهي في اتقان مستمر تتزايد حمولتها يوماً عن يوم. وماذا نقول في الطائرات وفي تنوعها وضخامتها وسرعتها ؟ حتى اصبحت البلدان مهما نأت وتناهت في البعد باتصال بعضها ببعض تتبادل محصولاتها بسهولة كلية. وقد نتج عن ذلك امران نلفت اليهما الانظار :

ارتباط الساحات التجارية

قد لمحنا فيما سبق الى ان الصناعة لا تكتفي بتجهيز طلبات معينة فحسب ، بل تنتج اشياء كثيرة بصرف النظر عن طلب معين. ولا شك ان تلك البضائع تعرض للبيع في الساحات التجارية ان في شتى المناطق من البلد الواحد وان في مختلف البلدان ، وذلك بوقت سريع واكلاف زهيدة بفضل ما يسرت الآلة من طرق المواصلات في العالم. فحصل ان الساحات التجارية اصبحت متأثرة ومتماسكة ومرتبطة بعضها ببعض ، حتى اذا تأخر او نشط انتاج احدى الصادرات في بلد ما شعرت بذلك التأخير والنشاط الساحات التجارية التي تعرض فيها تلك السلع تتراوح اسعارها بين هبوط وصعود حسب توافرها وانتقاصها ، فيتضعضع الشاري والبائع ، فيمتنع هذا عن البيع وذاك عن الشراء ، او يستقل بالتجارة بعض المتمولين فيخلقون احتكاراً واقعياً ويحتفظون بتسعير البضاعة وفقاً لرغائبهم مشروعة كانت ام لا ولا ريب ان مثل هذا الاحتكار الواقعي له سهمه الاوفر في الازمة الحالية. وهل من حاجة الى القول ان ما نقاسيه في هذه الايام يعود الذنب فيه الى مثل هؤلاء المحتكرين ؟

المزاحمات التجارية

لكن الشرّ لا يقف عند هذا الحدّ اذ ينتج عن سهولة المواصلات امر آخر يؤثر في العامل بنوع خاص نعني به المزاحمات التجارية . لا منازعة ان المرافق

الطبيعية متفاوتة بين البلدان منها ما هو غني التربة ظاهرها وباطنها ومنها ما هو فقيرها . وهكذا قل عن التقدّم الصناعي فقد بلغ درجة من الرقي في بعض البلدان لم يصل اليها في غيرها . اضف الى ذلك ان اجور العمال ليست هي نفسها في كل صقع . فقد يتقاضى العامل الفرنسي مثلاً اضعاف ما يتقاضاه العامل الياباني . لا بل نشهد هذا التفاوت في الاجور ضمن نطاق البلد الواحد ، ولنا في بلادنا شاهد على ذلك اذ ما يتقاضاه العامل « المتوالي » اقل بكثير مما يطلبه غيره من العمال .

فهذه العوامل الثلاثة كافية لتفهم ان اكلاف البضائع متأثرة بغنى البلد الطبيعي ، وتقدمه الصناعي ، واجور اليد العاملة فيه . واذا توافرت هذه العوامل الثلاثة في البلد الواحد سيطرت بضاعته في جميع الاصقاع وهدّدت الصناعة الوطنية بالبوار . وما البضاعة اليابانية الا اكبر شاهد على هذه الحالة ، اذ نراها منتشرة ومعروضة في جميع الساحات التجارية . ولهذه المزاحمة اليد الطولى في قتل حرير القزّ في بلادنا . وادّت هذه المزاحمة ايضاً لبضع سنين خلت الى قتل معمل سكر بالقرب من طرابلس . لان السكر الذي يردنا من مصر كان اقل ثمناً واكلافاً من السكر الذي كنا نستخرجه في بلادنا . وحكاية النسيج الوطني شبيهة بقصة معمل السكر . فان حرير القز الذي تنسجه الانوال البيتية يكلف اكثر من الحرير الذي تنسجه المناسج الصناعية في البلدان التي نشطت فيها الصناعة وازدهرت .

لكن ما العمل لوضع حدّ لهذا الخطر ، اذ ما من بلد يرضى بان تموت صناعته ؟

للامر حلّان ممكنان او بالاحرى معروفان ، يعمل بهما : اما ان نقفل ابوابنا باية طريقة كانت امام هذه البضاعة الاجنبية فنعرض انفسنا للمعاملة نفسها ، فتقفل تلك البلاد ابوابها بوجه بضاعتنا . واما ان نحاول مزاحمة تلك البضاعة ، وذلك بانتاج بضاعة قليلة الاكلاف . واذا كانت الطبيعة لم تمنّ علينا بتربة غنية ، او لم تبلغ الصناعة مبلغها من الرقي كان لا بدّ لاصحاب المعامل والمبارك من تخفيض اجور عمالهم الى حدّ غير معقول . فيذهب العامل ضحية هذه المزاحمة

اذ يجد نفسه يتقاضى اجوراً دنيّة لا تكفيه واهل بيته . فقر وشقاء ينزلان بالعامل فيحسب نفسه ، وهو لعلى صواب ، ضحيّة الجور والظلم . ولا عجب اذا فتش عن اية طريقة ممكنة للافلات من حالة غير مرضية . وليس هذا الحل ، اي تقليل اجور العامل ، مما يبهج ارباب التجارة ، لان مقدرة العامل الشرائية تضعف بتضاءل اجوره فتفيض الخيرات ويكثر الجوع والشقاء .

تأثير الآلة في العلاقات بين العامل وصاحب العمل

شعر العامل بضيق في اجوره ، وضيق في مسكنه ، وضيق في نفسه ، وجال بنظره الى ما حواليه فرأى نفسه بمزلة يتخبّط في مصاعب شتى ، وما من يمدّ له يد المساعدة . فخامره الشك فيمن يتعاون واياهم على العمل لان الشعب بحاجة الى مدبر يضع فيه ثقته ويفضي اليه بهمومه ، وهو لم يكن على استعداد لمجابهة ظروف معيشة لم يألفها . فتضعضع وفتش عمن يكل اليه امره . ولما لم يجد صاحب العمل استسلم بين يدي من وعده بالاهتمام بشؤونه دون ان يتفحص امره .

علاقات العامل وصاحب العمل في الحوانيت الصغيرة

قلنا ان الصناعة اليدوية استبدلت بها الصناعة الميكانيكية وذلك بفضل الآلة . اين هي ، اللهمّ في المدن الكبرى ، تلك المصانع الصغيرة يجتمع فيها عدد صغير من العمال يشتغلون على مرأى ومسمع بعضهم من البعض ، يشملهم نظر صاحب العمل الابوي ويكتنفهم بعطف وحنان هم بحاجة اليهما ، لا سيما اذا ما كانوا بعد في اول عمرهم . فانهم لم يُنتزعوا من بين يدي اهلهم ليُطرحوا في محيط مجهول . انما غادروا عائلتهم لينضموا الى عائلة اخرى لا تقلّ عطفاً ومحبة عن الاولى . فهم يتآنسون ويتحادثون ، ويلتفون حول مائدة واحدة يؤنسها صاحب العمل ، الذي لا يشمئزّ من الاختلاط بهم ، ولا يحطّ من قدره عمله هذا انما يشرفه ويوطد في قلوب عماله نحوه عواطف المحبة والاحترام لانه يحب عماله ويحترمهم ويعرف ان عمل كليهما ليس الا واسطة تؤمن لهما الحياة . هم يقفون عملهم في خدمته وهو يأخذ على نفسه ان يزيلهم مع عائلتهم . كما ان الاب الذي يعطي الحياة لولد لا يتقاعد عن حفظ تلك الحياة وانمائها ، كذلك هو قد تبنى

عماله وقطع معهم عهداً ان يعطيهم ازاء شغلهم ما يكفيهم وعيالهم . ولا عجب اذا وجدت هذه الروح التي تهيمن على المصنع اتحاد القلوب والتعاضد الحقيقي ، فلا تدع مجالاً للمنازعات بين الفريقين لان علاقات ودية صادقة تربطهما وتضمن لهما هناء العيش وصفاء النية . فيكبر العمل في عيني من يأتي به لانه يفهمه كما هو . فيكون هذا الجو العائلي الذي يشمل تلك الحوانيت من اكبر العوامل على رفع شأن العامل . ونقول ان ضائقة المال ليست بضائقة مال فحسب ، بل هي ضيق في النفس وعزلة وانفراد . وقد تحدد ساعات العامل وتقللها على امل ان نضع حداً لشقاء العامل . وقد ترفع مستوى الاجور متوخين الغاية نفسها ولكن اصلاحاتنا هذه وان ضرورية لا تفي بالمطلوب وحدها ، لانها تهمل وجهة هامة في القضية وهي نفسية العامل . فقد اصبح هذا بحاجة الى ثقافة وتدريب خاصين يناسبان الظروف الحاضرة ويحببان العمل الى العامل .

علاقات العامل وصاحب العمل في المعامل الكبيرة

هذا ما كنا عليه ، وهذا ما صرنا اليه : الفة وتعاضد . ابتعاد ومنازعة .

قلنا ان تلك المعامل الصغيرة تبدلت الى معامل كبيرة تضم الوفاً من العمال يدير شؤونها اناس يجهلون العامل ، وهذا يجهلهم ، فيحدث واحد من شيئين :

اولها ان تلك الصناعة تخص مساهمين كثيرين او اعضاء شركات مغفلة يكلون ادارتها الى مهندسين يسهرون على سير الاعمال ، ويؤمنون لهم الارباح ، فيتقاضون لقاء عملهم اجرة معينة تربو اذا ما ازدادت المكاسب . فيصبح همّ المهندسين الاوحد ان ينشطوا الصناعة بقدر طاقتهم زيادة لارباحهم . ويصبح هم الشركات والمساهمين ان يروا في ايديهم كثيراً من المال . فينسى هؤلاء وينسى اولائك ان تلك المكاسب انما القسم الاوفر منها ثمرة اتعاب اناس وقفوا حياتهم على خدمتهم ، لهم عيالهم ، ولهم متاعبهم وهمومهم ، فلا يجوز التغاضي عنها . لكن التبعات قد ضاعت . اما المساهمون فلانهم يجهلون كل شيء او يتجاهلون فيغسلون ايديهم قائلين : ما لنا وللعامل ، اننا لا نعرفه هو يجهلنا فليحلّ مشاكله اذا كان ثم مشاكل مع من يدير شؤون المعمل . وليس هذا باكثر اكتراث منهم اذ لا يتردد في القول : انه عامل يتقاضى اجرته فلا يعنيه امر العمال ومطاليبهم . فيتضعضع هؤلاء غير

عارفين الى من يرفعون شكواهم فتتخزن في قلبهم الحزازات والضغائن ريثما تجد من يستغلها فتنفجر حينئذٍ عن تحاش وتتحول الى الخراب والتدمير والدم .

وثانيها ان صاحب المعمل يدير شؤونه بيده ، وليس ثم مساهمون او شركات غفل . الا ان الحالة قد لا تتغير . لماذا ؟ لانه يستحيل على صاحب العمل ان يتصل بعماله ، وقد كثر عددهم جداً ، فيتحدث اليهم ، وهم مئات والوف . فتكون الخطوة الاولى ابتعاد كل من الفريقين عن الآخر . فيولد هذا قلة المعرفة . هو يجهل همومهم ومشاكلهم ومطاليبهم ، وهم يجهلون استعداداته وعواطفه . هل من اعتبار لهم في عينيه ام هل يريد ان يستغلهم وحسب ؟ هم يتحملون عمل النهار والليل فيعودون الى بيوتهم مضنوكي القوى منهوكيها يتخبطون بتصاعب شتى . اما هو فهل يتعب او يشقى ؟ ام هل ينعم بما يدرّ عليه عملهم من خيرات : نحن نأكل لقمتنا مغموسة بالدم وهو يأكلها مغموسة بالعسل . هو يسعد من شقائنا ، ونحن نشقى لسعادته . فيولد هذا الشك فيهم سوء التفاهم والحقد والبغض ، ويصبح العمل في اعينهم عبئاً باهظاً يثقل عليهم حمله . فليس ثمّ في اعينهم خدمة يؤدّونها لمن يستخدمهم يقابلها خدمة يؤديها لهم ازاءها فينخسون في ضمائرهم : اعطف ومحبة ام استعباد واستثمار ؟ اعدل واخاء ام جور واحتقار ؟

ساعة ابتعد العامل عن صاحب العمل ، فجهل احدهما الآخر ، حينئذٍ اصبح بالامكان التفرقة بين قلبيهما وبثّ روح الحقد والثورة في قلب العامل وعدم المبالاة والاحتقار في قلب صاحب العمل . حينئذٍ فقد العمل قيمته الانسانية فاحتقره العامل وثقلت عليه وطأته ، حينئذٍ اصبح العامل جزءاً من الآلة التي يديرها وصار عمله سلعة تباع وتشرى .

بعض الظواهر التي وطدت هذه الفكرة في عقل العامل

وقد يعدّ نفسه سعيداً ان لا تنحط قيمته عن قيمة الآلة . لندخل احد المعامل — ماذا نرى : شباناً وشابات يسيّرون آلات جبارة . ما العامل ازاء تلك الآلة ؟ قزم امام جبار . وما هي الا حركة غافلة او في غير محلها حتى تردده

الآلة ازدراداً ، فيستصغر نفسه ويستضعفها: « مسكين ابن آدم مكتوم الاجل ، مكنون العلل ، محفوظ العمل ، توءلمه البقّة ، وتقتله الشرقة ، وتنتنه العرقة »[1] انما هو يعقل والآلة لا . لكن هل هو من ذلك على يقين ؟

لا نريد ان نغالي ونشوّه وجه الحقيقة . الّا ان ظروفاً كثيرة مبعثرة في حياة العامل تؤثر عليه وتدمي قلبه فتبدي على سبيل المثل هذه الملاحظة : لو فرضنا ان تعطلت لسبب من الاسباب احدى الآلات التي يستخدمها العامل ، فما يكون من صاحب العمل الّا ان يستدعي من يعالج شأنها ولا لوم عليه في فعلته . ولو فرضنا ان أُصيب احد العمال بعلة ما اثناء عمله فما يكون من صاحب العمل الّا ان يطرحه غير آسف عليه . ولا غرو فان الآلة عزيزة في عينيه ، لانها تكلّفه مبالغ طائلة . اما العامل فمبتذل وبخس الثمن . كيف لا وهو بانتظار من يستخدمه على مفرق كل طريق ، وفي زاوية كل شارع ، وفي الساحات العمومية وفي القهاوي وفي . . . افواجاً افواجاً يقفون بطالين لانه لم يشغلهم احد . فما عليه الّا ان يبدي اشارة فتتوافد عليه العمّال مسترحمين متوسلين مستسلمين الى من في يده انعاشهم مع عيالهم ، وقد سئمت نفسهم البطالة وذاب قلبهم اسى لمرأى عيالهم ضياعاً وعراة .

الاسباب التي منعت عن وضع حد لهذه الثورة

لقد احدث التقدم الصناعي فوضى في العالم . هذا امر واقعي . وكان لا بد للتقدم الذي شهدته الانسانية من ان يحدث ثورة . هذا ما يفهمه كل انسان . اما ما لا نفهمه فتبرره فهو ان يمر علينا ويلات لم نكن بانتظارها ، وقد صفقنا مهللين للاختراعات العجيبة مكبرين لها . لماذا ترى وصلت بنا الحالة الى ما وصفناه ؟

لان الثورة لم تجد رادعاً يوقفها عند حدّ فيمنعها من ان تنقلب الى فوضى عالمية . لان نظرات فلسفية فاسدة وآراء اقتصادية عقيمة شوّشت العقول وبلبلت الافكار ، فاعمت عيون ارباب العمل ومسكت بيد ارباب السلطات ، فجعلتهم يستسلمون للشر الذي يشهدونه وينقادون له صاغرين :

---

١) علي ابن ابي طالب ، الروائع ١ : ٤

« فالاضطراب ليس في الطبيعة الخارجية ، لان قوى الطبيعة خاضع اكثرها لتسيير الانسان ولا الانظمة الاجتماعية لانها هي ايضاً من وضع الانسان يكيفها ويبدلها كيفما شاء .

« مركز الفوضى الحقيقي هو نفس كل واحد منا . في تفكك المعتقدات الاساسية التي تقوم عليها الحياة . في انهيار المبادئ التي نتشى عليها في معاملة بعضنا لبعض ، في تضوب الينابيع الروحية في نفوسنا وجعل المادة مسيطرة على كل قوى الحياة في استسلامنا اخيراً الى تزق شهوات ومطامع ألهناها وحللناها في حياتنا محلّ الشرائع الازلية التي رسمها الخالق للانسان.

« لقد حلّ في عالمنا الحاضر ما يحلّ غالباً في جسم الانسان عند انتقاله من طور الصبا الى طور الشباب. فانه بسبب نموّه السريع تنحط في شرايينه قوة الدم الحيوية فيشحب لونه وتخور قواه وتصبح حياته مهددة بالخطر المميت. هذا الداء معروف عند الجميع « بفقر الدم » .

« فعالمنا اليوم قد سار شوطاً بعيداً في التقدّم المادي . بسبب الاستنباطات العجيبة التي لم يعرفها الانسانّ في الاعصر الغابرة . ولم يك هذا النمو ليرافقه نموّ في الحياة الروحية فطغت المادة على الروح وصرنا نحس بالافتقار الى تجديد روحي يعيد الانتعاش في الهيكل الاجتماعي. هذا هو السبب الرئيسي للفوضى العالمية. »[1]

رادعاه للفوضى : داخلي وخارجي

الرادع الداخلي

ان هذا « الانتعاش في الهيكل الاجتماعي »[2] يتجسم لنا في امرين كان يوسعها ان يكونا رادعين للثورة. اما الرادع الداخلي فهو ضمير نحي يدلي لكل انسان بواجباته فيتممها. فهو صوت العدل والمحبة والاخاء. هو نظرة عدل الى العامل واقرار بشخصيته وقيمته واعتراف بها، مهما دلت الظواهر على قوة الآلة وضعف العامل لان هذا يفوق تلك بدرجات لانه حي هو ، وهي لا. لان له نفساً تشرئبه وترفع

---

١ و٢) الفوضى العالمية ، ص ١٤-١٥

مقامه وتعززه في اعيننا فهو ارفع من ان يباع ويشرى ، اما هي فليست الا سلعة مهما ارتفع ثمنها . لانه اخيراً يريد ان يكون شغله خدمة يقدمها لصاحب العمل ازاء خدمة تُقدم له، لا ان يكون سلعة يتجر بها لان شغله جزء منه فهو يريد ان يخدم فيفيد لا ان يستخدم فيُستغلّ .

الا ان تعطّشاً للربح لا يُروى وجشعاً لا يشبع استوليا على بعض الرأسماليين « فاصبح همهم منصرفاً الى توفير اموالهم باية طريقة كانت يسعون وراء غاياتهم فوق كل شيء وقبل كل شيء وما من امر الا يستحلونه لمصلحتهم الخاصة حتى افظع الجرائم في حق الناس . . .

« وكان من البديهي ان سيرة مديري الشؤون الاقتصادية المنحرفة عن الطريق المستقيم تدفع بعموم العملة في مختلف الاحوال الى التورط مثلهم في هوة الهلاك ولا سيما لان السواد الاعظم من مديري الاشغال الصناعية قد استخدموا عملتهم كالآلات الصماء غير مكترثين لخير نفوسهم بل غير مفتكرين بمصالح مستخدميهم السامية . . . وهكذا الشغل الجسدي الذي رتبته العناية الالهية لمنفعة جسد الانسان وروحه يتحوّل في احوال عديدة الى آلة فساد : اي ان المادة الجامدة تخرج من العمل اشرف واسمى ؛ اما الاشخاص البشرية فينفسدون فيه ويصبحون ادنى قيمة . »[1]

ولا غرو في ذلك لان النظريات الفلسفية المادّية حطّت من شأن الانسان وانكرت عليه روحه وجعلته في مصافّ الحيوان ، اذ المادة وحدة كائنة ولا كيان لغيرها . وما الانسان الا نتيجة المادة في مختلف تطوراتها . فهو يخلق وينشو ثم لا يلبث ان يموت فيتلاشى « مسكين ابن آدم . . . » اما هو فيعقل ، والآلة لا . لكن هل هو على يقين من ذلك ؟

الرادع الخارجي

كان ثم رادع ثانٍ لهذه الثورة يقف بها عند حدّ ، اعني به تداخل السلطات بوضع شرع يسنونه . لكن التقدم الصناعي حرم من هذا الشرع وقد قال احدهم :

١) رسالة البابا بيوس الحادي عشر : الترجمة العربية ، ص ٤٧-٤٨

« ان الصناعة الحديثة في اول ازدهارها كانت بحاجة الى تعليم ثقة يرشدها الا انها لم تلقَ الا تعليم الحرية الاقتصادية المرتكزة على شريعة العرض والطلب ، شريعة وثنية تدفع الضعيف بين يدي القوي. »[1]

يزعم مناصرو هذه النظرية ان الطريقة المثلى التي تنعش اقتصاديات البلاد وتفيض الخيرات على الافراد انما تقوم باعطاء الحرية المطلقة للافراد في حقل الصناعة والانتاج والتجارة « لان الفرد اخبر بخيره من كل شخص آخر . واذا ترك للافراد حق الاختيار فانهم سيسعون لتحقيق اكبر خير يعود لانفسهم . . . فلنترك الاسواق حيث يلتقي الشاري والبائع وشأنها فتتبدل الاسعار صعودًا او هبوطًا حسب قوى العرض والطلب الناتجة عن اختيار الناس وتفضيلهم بعض الاشياء على البعض الآخر واجور العمال كغيرها من السلع تدخل في نطاق الاسعار ولذا ينبغي ان تخضع مع سواها لقانون العرض والطلب. »[2]

فيكون والحالة هذه موقف العمال مزدوجًا ازاء صاحب العمل :

لو فرضنا ان صاحب العمل يريد ان يستخدم مئة عامل فيلبي دعوته ثمانون ، ويستحيل عليه ان يجد غيرهم . فيقول الاباحيون : ان لهؤلاء الحق بطلب الاجور التي يريدونها — وان لصاحب العمل الحرية في القبول ام الرفض — ولكن ماذا تكون النتيجة ؟ ان قبل شروطهم الجائرة لا يلبث ان يزج تحت عبء ثقيل يقوده الى الافلاس . وان لم يقبل بالشروط ظلّ الثمانون عاملًا بغير شغل .

ولنفترض الآن ان صاحب العمل يحتاج الى مئة عامل فيلبي نداءه الف . ماذا يحدث ؟

يقول الاباحيون : دع الفريقين يتفقا على شروط العمل . فان لصاحب العمل الحق في املاء الشروط التي يريدها وان جائرة ، وللعمال الحرية في القبول ام الرفض . فنجيب : وهمية هي تلك الحرية لان العامل يفضل الشغل وان لقاء اجر زهيد على البطالة التي سئمتها نفسه . وهمية هي لان العامل اذا ما رفض الشروط

(١) *Cahiers d'Action Sociale* N° 72 Mgr. Germain

(٢) الطليعة — السنة الثانية ٣ : ٢٢٢

يعرف ان عمالاً كثيرين يعدون انفسهم سعداء اذا ما وجدوا شغلاً مهما كانت الشروط .

ان الاباحيين يقرون ان في بادئ بدء قد يحدث بعض الشرور والمظالم . لكن هذه لا تلبث ان تتلاشى ويحصل التوازن الاجتماعي من تلقاء ذاته بفضل شريعة العرض والطلب .. ولنحذرن السلطات ان تتدخل في الامور الاقتصادية فتضع شرائع تحدد فيها اجور العامل او ساعات العمل او الانتاج او المبادلات التجارية . لا . فان مثل هذا التدخل يفسد كل شيء ويقف حاجزاً في وجه حرية الافراد المطلقة الذين هم وحدهم عارفون بما يعود لخيرهم ويفتشون عنه بكل اعتناء . وبفضل المزاحمات الناتجة عن هذه الحرية المطلقة ينال كل انسان حسب جهوده . فكأني بهم يقولون للحكام : اطلقوا اليد في هذا الحقل واحذروا من ان تعرقلوا الحرية بطريقة من الطرق :

حرية المبادلات والمزاحمات التجارية، ولا تنتبهوا الى ما ينجم عنها من الخطر للصناعة الوطنية .

حرية اليد العاملة من رجال ونسوة واولاد كل يعمل متى يريد وكيف يشاء، وغضوا الطرف عما يهدد الحياة العائلية .

حرية التعاقد بين العامل وصاحب العمل، وتجاهلوا ما يلحق بالواحد او بالآخر من اجحاف .

واخيراً حرية الانتاج وان تراكمت الخيرات وفاضت وليس ثم من يشتريها او يستهلك .

واذا كان لا بد من خاتمة فنقول :

استنباطات معجزة شهدناها فوقفنا امامها حائرين مكبرين : سبحان من جعل الانسان يفهم ويعقل .

تطورات مدهشة في حقلي الصناعة والانتاج سهلت للانسان طرق المعيشة وفسحت امامه مجالاً واسعاً للتأنق في معيشته وتعدد حاجاته : « وليس تعدد الحاجات من آيات الوهن او علامات السقم في الفطرة البشرية . بل قد يكون

دليلاً على عظمتها وكرمها . فالطبقة السفلى من الحيوان اقل حاجات من الطبقة العليا والهمج اقل حاجات من البرابرة وهؤلاء اقل حاجات من الامم المتحضرة في اثناء المدنية .»[1]

تقدم سريع مشى حثيثاً بالبشرية المضنكة بالنظريات الفلسفية والاقتصادية فغمضها وافقدها رشدها واتجاهها البعيد ، ولم يمهلها وقتاً تعي فيه كيف تستعمل ما تدر عليها الآلات من العجائب والغرائب فتستفيد منها . فتمايلت عجباً وافتخاراً وتوهمت انها حظيت بالسعادة التي تفتش عنها وما هي الّا ليلة وضحاها حتى رأت نفسها تجر ذيلها خسيسة ذليلة وراء تلك الآلة ثمرة جهودها فاستعبدت لما خلقته لتستخدمه .

ونحن لا نحكم على الآلة فنشجبها انما ندعو الانسان مستوقفينه قليلاً قائلين له : هي الآلة لك فاستخدمها ولا تستعبد لها . انما انت اكبر وارفع من ان تخرّ ساجداً امام صنع يديك .

---

١) الموجز ١ : ٢٧-٢٨

دار الآثار اللبنانية

في بيروت

مقام امينها الامير موريس شهاب

٢

الطبقة العليا

عرضنا ، في هذه الطبقة ، الآثار الصغيرة الحجم من العصور السابقة للتاريخ حتى العصر البيزنطي :

الرسم ١ — من الجرار المكتشفة في جبيل

ظهر اولا بوجه السلم الصاعد قالبان لجمجمتين ، مثلت الاولى جمجمة الانسان ، والثانية جمجمة القرد ، اقرب الحيوانات الى الشكل الانساني . على انه رغم هذا التقارب ، تظهر الفروق مهمة ولا سيما في الجبهة وفي الذقن .

رواق ما قبل التاريخ

ان الادوات الظرّانية المعروضة في هذا الرواق هي ثمرة التنقيبات التي قام بها الاب بوفيه لا پيير (Bovier-lapierre)

والسيد پاسيار (Passemard).

وقد مثلت صناعة الظرّان الاول ، او غير المصقول ، بآثار عديدة كالمطارق الضخمة ، والمقاشط ، والمناشير ، والسكاكين ، والحراب.

ولا يخفى ان آثار هذه الصناعة وافرة الانتشار في لبنان واهم محطّاتها موقع قصر العقيل قرب انطلياس ، على ثمانية ك.ل. من بيروت.

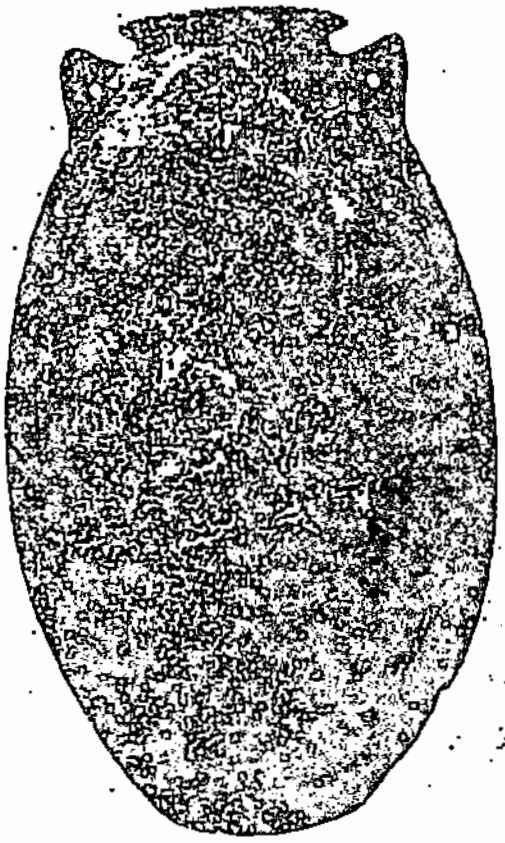

الرسم ٢ – من الجرار المكتشفة في جبيل

رواق ما قبيل التاريخ

يجد الزائر وسط هذا الرواق ، في كومة من الرمال ، عددًا من الجرار الراقية الى العصر الانيوليتي (الرسمان ١ و٢) وقد كُسر بطن الجرّة بضربة حجر ، حتى أُدخل فيها الميت ، فدُفن على هيئة الجنين في بطن امه. وحوله اسلحته الظرّانية ، وبعض الآنية التي كان يستخدمها في مأكله ومشربه. وكثيرًا ما رأينا في أذنيه حلق الفضة : (الرسم ٣)

ومن ميزات الشعب الانيوليتي الجمجمة المستطيلة استطالة غير طبيعية. ذاك انهم كانوا يضغطون على رأس الطفل بلفائف تطيل جمجمته ، حال نموّها. ويقول الدكتور ڤالوى (Vallois) ان هذا الشعب من سلالة الشعوب المنسوبة الى البحر المتوسط . ونحن نعرف انه بنى لنفسه اكواخًا على المنحنى الغربي من اكمة جبيل. وغطّى بجراره المدفنية كل الأكمة. وكان يستعمل الظرّان في صنع اسلحته

الرسم ٣ – ما وُجد ضمن جرّة من الجرار الانيولية

وادواته ، الّا القليل منها فكان يستخدم لها النحاس . فهو شعب عرف المعادن (الفضة والنحاس) ولكن استعماله لها كان قليلًا نادرًا .

والى جنب هذه الجرار ، يرى الزائر في الخزائن ، عددًا من الآثار الخزفية مكتشفة في المدافن الانيوليتية المذكورة. وهي رشيقة البطون احيانًا ، مرتفعة العُرى ، دقيقة الأسفل . وكلها مصطنعة باليد مجففة بحرارة الشمس . ومنها ما زُخرف دائره بخطوط محفورة.

الرسم ٤ – اناء خزفي من العصر الانيوليتي

ومن هذا العصر الانيوليتي قطعة من العاج اكتشفت في احدى الجرار المدفنية ، تمثل اناء اسطواني الشكل وحيوانًا من ذوات الاربع .

وهناك عدد من الآنية الخزفية احدث عهدًا مما تقدم (الرسم ٤) . منها امثلة راقية الى الالف الثالث ق. م وهي اقلّ رشاقة من الخزف الانيوليتي ، معروفة في بلاد كنعان منذ اواخر الألف الرابع الى اوائل الألف الثالث . وهي في بعضها ، ولا سيما تلك المسطحة الأسفل ، المزدوجة العروة في بطنها ، المتسمة الفم ، تشبه آثار الخزف الانيوليتي . وتشاركها في ان تربتها غير نقية ،

فيها كثير من الحصى. وهذه الحرفيات مكتشفة في لبنا من قرى منطقة صيدون.

وقريباً منها آثار من الخزف حيوانية الشكل، تمثل الثيران او الطيور. وقد تزدان بخطوط من التربة الحمراء. ولا يخلو صنعها من دقة وقوة في التصوّر كما يظهر في احد الثيران. وهي من مكتشفات جبيل، ترقى الى الالف الثالث، وُجدت، مع غيرها من الآنية الصغيرة، في زاوية احدى الغرف الملحقة بهيكل جبيل. وكانت لا تزال مصفوفةً بعضها فوق بعض، كما رتبها احد كهنة الفنيقيين في القرن الثالث ق. م.، قبل احتراق الهيكل.

وفي الخزانة التالية، يرى الناظر قطعاً من حجر الشطوط هي بقايا الآنية او موائد التقدمة، حاملة اسماء الفراعنة الذين قدّموها. واقدمها يحمل اسم الفرعون خاسخموي، آخر ابناء الاسرة الثانية، الذي حكم مصر في حدود السنة ٣٠٠٠ ق. م. ومنها ما يحمل اسمي باني اهرام الجيزة، خوفو وميكرينوس. واحدثها عهداً واكثرها عدداً تدوّن اسماء پيپي الاول، وپيپي الثاني. منها اناء يمثل انثى قرد تحمل صغيرها، ويظهر على كتفها اسم الفرعون پيپي.

هذه الآنية المتعدّدة تدلّنا على العلاقات الودّية المتينة التي جمعت بين جبيل ومصر طوال الألف الثالث ق. م. كما تدلّ على الأثر العميق الذي كان لبعلة جبيل في نظر الفراعنة حتى اعتنوا هذا الاهتمام بعبادتها، واهدوا اليها هذه التقادم، بينما كانت المدينة تصدر اليهم خشب ابنيتهم، وحنوط موتاهم.

رواق الألف الثاني

كان من فضل حفريات جبيل أن أولت تاريخ الألف الثاني ق. م. نوراً جلياً. ومع ان الفنيقيين استقروا في بلادنا في اوائل الألف الثالث ق. م. فاننا لا نعرف آثار مدنيّتهم المزدهرة ذاك الازدهار العجيب الّا منذ اوائل الألف الثاني.

ففي القرنين التاسع عشر والثامن عشر، نجد ملوك جبيل يهتمون بقبورهم اهتمام فراعنة مصر. ويعاصر هذه القبور هيكل المسلّات المحتوي على كثير من

الكنوز . ومن هذين المصدرين : القبور الملكية والهيكل ، أتتنا اكثر التحف التي تزين خزائن الحليّ .

اكتشفنا في جبيل احد عشر قبرًا من قبور الملوك . الّا اننا لم نرَ محفوظًا منها الّا ثلاثة . اما التصميم فكان يتناول ، على الأرجح ، ثلاثة اقسام : مصطبة تعلو القبر ، لم يبقَ منها الّا الاساس . ثم بئر مربّعة القطع ، يختلف عمقها باختلاف عمق الحجر المحفورة فيه ، ثم الغرفة المدفنية التي يوضع فيها الملك الراحل محاطًا بحليه ، نائمًا في تابوس من الحجر او من الخشب .

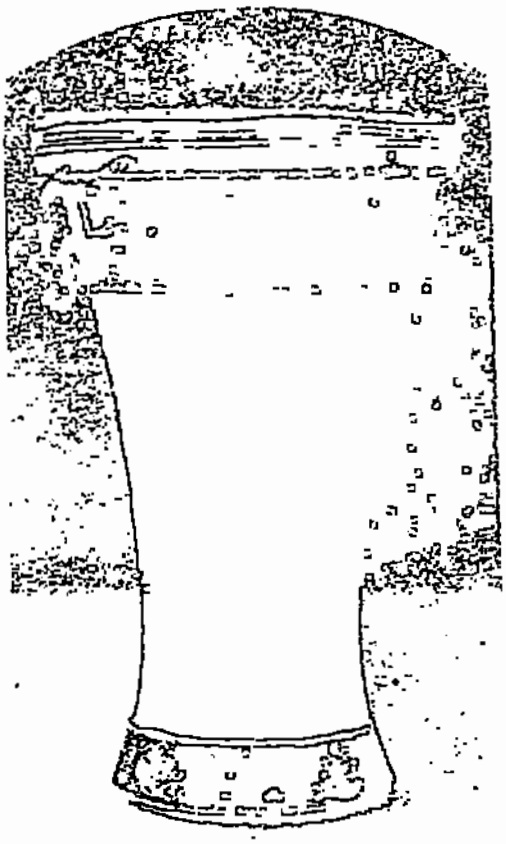

الرسم ٥ — اناء من الاوبسيديين

اما القبر الاول وهو اقدمها ، فكان مثوى الملك ابي شمّو . وقد عرفنا تاريخه بوجود إناء للبلسم من الاوبسيديين المطوّق بالذهب ، وهو رشيق الصنعة يحمل اسم الفرعون امنحمت الثالث الذي حكم من السنة ١٨٤٩ الى السنة ١٨٠١ . (الرسم ٥)

وكان الى جنب الميت مرآة صفحتها من الفضة ومقبضها مغطّى بالذهب ، ومصنوع على شكل ساق السجدي ، وهو شكل معروف في مقابض المراتي المصرية . (الرسم ٦) وبالقرب منه صولجانه ، ينحني على شكل منجل الحصاد ، متأثرًا بالفنّ الأشوريّ

الرسم ٦
مرآة صفحتها من الفضة
ومقبضها مغطى بالذهب

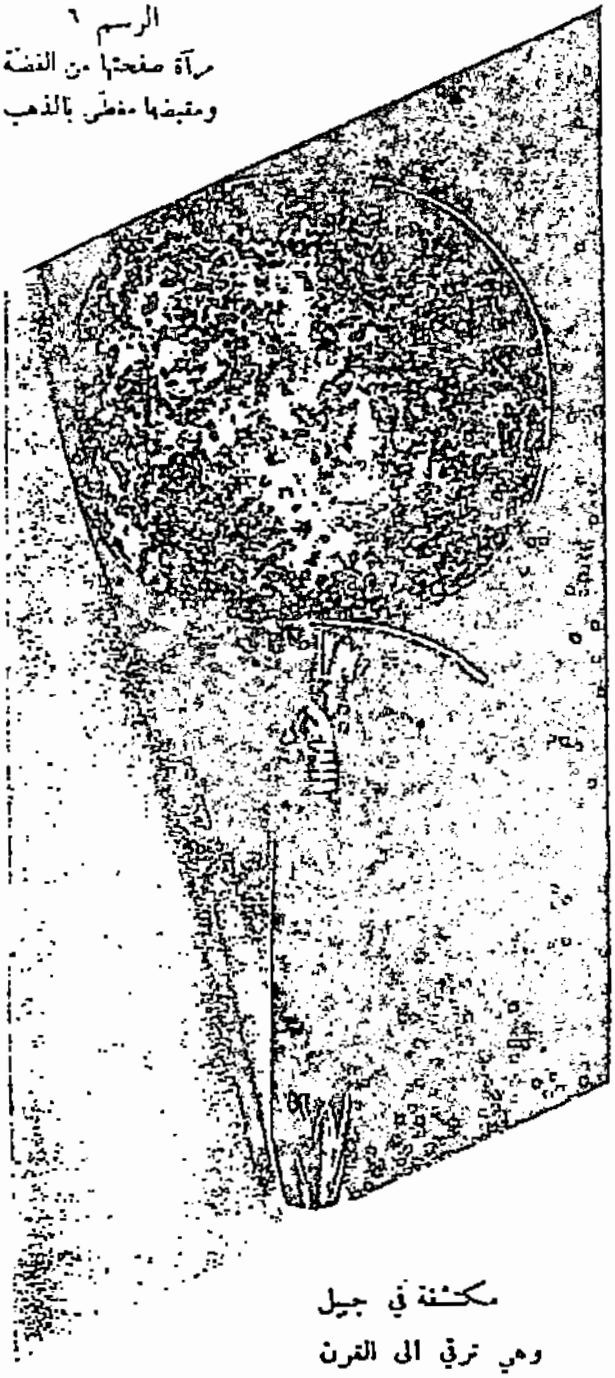

مكتشفة في جبل
وهي ترقى الى القرن
التاسع عشر قبل الميلاد

الأكدي . وقد احتذى الملك نعلين من الفضة واحاطت بعنقه قلادة من العقيق ، واخرى من الذهب مزدانة ببازٍ مبسوط الجناحين . وفي يده سوار مذهّب ، وفي اصبعه خاتم ذهبي ذو فصّ من العقيق على شكل الجمل .

الرسم ٢ – اناء رشيق مكتشف في جبيل

وكان حول الناووس آنية كثيرة من الذهب ، والفضة ، والبرونز ، والخزف ، وحجر الشطوط ، تحتوي على طيوب الملك وطعامه . منها اناء رشيق يشبه ابريق الشاي ، مضلّع البطن يظهر من اجمل آثار الفنّ المحلي (الرسم ٧) . وكذلك بضعة آنية من الخزف مغشّاة بطلاء لمّاع . ومعها آنية من حجر الشطوط مصنوعة في مصر ، او في فنيقية تقليداً للفنّ المصري .

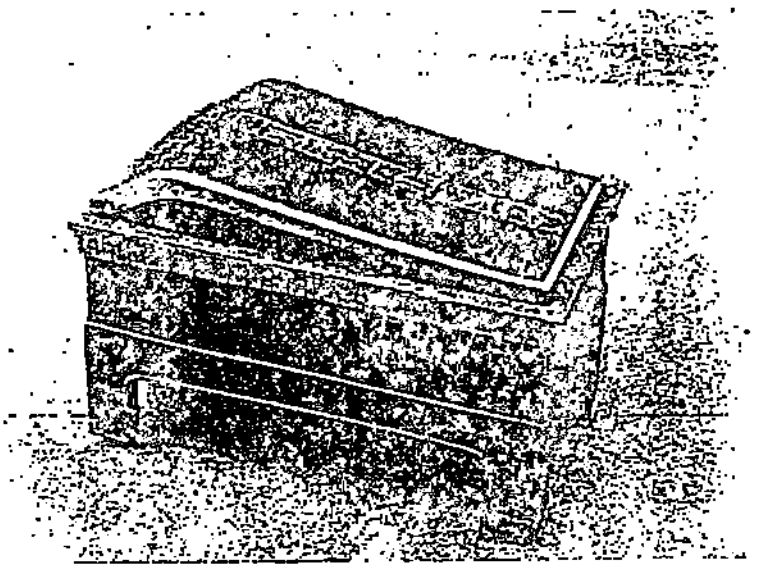

الرسم ٨ – علبة من الاوبسيديين مطوّقة بالذهب

اما القبر الثاني ، وهو شبيه بالأول في هيئته ونوع اثاثه ، فكان مدفناً لابن الملك ابي شمو السابق الذكر ، وهو الملك إب شَمو أبي . ومع ان تابوت هذا الملك كان من الخشب المرصّع بقطع الميناء الملمّعة ، فان أثاث قبره ظهر اثمن من اثاث قبر ابيه . وقد نُقش اسمه ونسبه على صولجانه بحروف هيروغليفية من الذهب . واهدى اليه الفرعون امنحتب الرابع علبة من الاوبسيديين مطوّقة بالذهب ، زجّج انها كانت تحتوي على البخور ، لأن اسمها في المصرية « بِرْ أنتي » اي بيت البخور (الرسم ٨) . ووُجد في هذا القبر حَليان جميلان من الذهب مرصّعان بالحجارة الكريمة ، احدهما يمثل تابوتاً ازدان اعلاه بدائرة الشمس مجنّحة يحيط بها قرنا أمون . والحلي الثاني على شكل صدفة ، ازدان بصورة جعل وصورة باز وبينهما خاتم يحمل بالصور الهيروغليفية اسم إب شمو أبي السامي .

وقد أمر إب شمو أبي ان يحفر سرداب بين مدخل قبره ، ومدفن ابيه ، رغبةً منه في ان يشرك اباه في التقادم ومظاهر الاحترام المرفوعة الى روحه .

اما القبر الثالث فظهر فيه صولجان من البرونز ، وقلادة ذهبية تعلق بها حَليٌ جميل فيه البازي المعروف باسطاً جناحيه. وهو ادقّ صنعاً من حلي القبرين السابقين . (الرسم ٩)

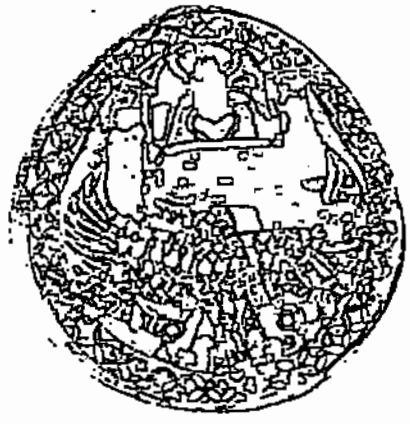

الرسم ٩
حليٌ ذهبي مكتشف في جبيل

ويظهر ان اسرة ابي شمو حكمت جبيل اكثر من قرن . وكانت مدة حكمها عصر ازدهار للمدينة .

وكان من مآثرها ان رفعت ، او جدّدت ، بناء هيكل على قمة الأكمة. تضمن هذا الهيكل سوراً خارجياً حدّد منطقة الحرم ، فارتفع في وسطها مذبح كبير ، دار حوله عدد من المذابح والأنصاب كان بعضها على شكل المسلّات اشارة الى العلاقات الطيبة بين مصر وجبيل . وكانت احدى هذه المسلّات تحمل عمودين من الكتابة الهيروغليفية ذكر فيها اسم الملك ابي شمو، واسم الاله رشف. وفي فناء الهيكل ، أقيم عدد من النواويس الصغيرة ، وبعض البرك في سبيل الحاجات الطقسية .

أولى الجبيليون القدماء هذا الهيكل الفقير المظهر احترامهم المتتابع ، فاودعوه كثيراً من النذور الثمينة . وكان اكثرها يوضع في جرار خزفية ، تُخفى بعناية زائدة تحت بلاط الهيكل . وقد يكون اشار الى هذا الهيكل ، احد ملوك جبيل في استغاثته بفرعون مصر ، إذ قال : « لا يحتقرْ سيدي الفرعون جبيل ، لان في هيكلها كنوزاً فائقة. »

اما هذه الكنوز فتتكوّن في اكثرها من أسلحة كنصول خناجر ، وفؤوس ، وحراب من البرونز ، لبعضها مقابض منتهية بشكل لولبي يدلّ على تأثير قرقاسي. وفيها مجموعات من تماثيل صغيرة تصوّر اشخاصاً بشرية ، او آلهة ، او حيوانات.

واثمن هذه المجموعات ما يأتي :

١ً – مجموعة الخنجر

اجل ما في هذا الآثار خنجر من الذهب مُثّل على جهة من مقبضه الاله رشف بجسم رشيق متأثر بالفنّ المصري ، وقبعة قشيّة . وعلى الجهة الثانية غزالان قائمان تحت غزال يرعى . وهذا المشهد اقرب الى ما يصوّره الفن الاشوري الأكدي . وعلى قراب الخنجر مشهد واحد يتكرر على الجهتين ، يمثل الملك على ظهر حماره يحمل صولجانه ، ويتجه لاستقبال جماعة من البشر والحيوانات .

وفي هذه المجموعة اربع فؤوس من الذهب . مُثل على احداها كبش طويل الأليّة . وهناك صورة كبش آخر على فأس اخرى من العصر نفسه ، تظهره من من النوع المعروف حاليًا في لبنان .

ويتم المجموعة عدد من التماثيل الصغيرة تمثل اشخاصاً بشرية . وتمثال لابي الهول تختلف هيئتـه عن هيئة ابي الهول المصري . واجلها يبلغ طوله ٣٥ سنتيمترًا وينطي الذهب مادته البروتزية . ويعلو رأسه قبعة مخروطة الشكل لا تزال نراها بعد اربعة آلاف سنة على رؤوس بعض اللبنانيين ، وهي المعروفة « باللبّادة » .

٢ً – مجموعة الفؤوس

تحتوي المجموعة الثانية على عدد من الفؤوس مصنوعة من الذهب ، او من مزيج الذهب والفضة . وهي تمتاز لا بنفاسة المادّة التي صنعت منها فقط ، بل بما فيها من دقّة الحبك والتجييب في زخارفها مما لا يكاد يبلغه صيّاغ عصرنا .

٣ً – مجموعة الأساور

وجدت هذه المجموعة امام مدخل الهيكل . وفيها عدد وافر من الأساور الذهبيّة المبرومة مفتوحة الدوائر . وهو شكل تميل اليه صناعة المصنوعات الفنيقية . ولعلّه قوقازي الأصل . ولم ينتشر في مصر انتشارًا يُذكر الّا في عهد الامبراطورية الحديثة ، بعد ان غزا المصريون هذه البلاد .

٤ً – مجموعة الحيوانات

هي مجموعة مهمّة من تماثيل الحيوانات من الطين الملتع ، تحتوي على اكثر

من ٣٠٠ قطعة. اكتشفت في شمالي مدخل الهيكل. ومع ما في بعض هذه التماثيل من الصبغة المصرية ، فلا شك في ان مجملها مصنوع بايدٍ فنيقية . وان تكن فرس النهر من آهلات النيل ، فان الدبّ لا يتكاثر الّا في جبال لبنان المرتفعة .

وكذلك القول عن الاناء الظاهر بشكل كأس لا عروة له ، فلا نرى مثيلًا له الّا في القبور الفنيقية. اما الاله بيس المكشر المحفور في الحجر الكلسي فان له من قوة العضل ما لا يعرفه الفنّ المصري . ثم ان مادة الطين اللتّاع التي صُنعت منها تماثيل الحيوانات تختلف اختلافاً بيّناً بلونها وتركيبها عن مادة التماثيل المماثلة في الصناعة المصرية . وان كانت هذه الحيوانات تقلّ رشاقة عن مولّدات الفنّ المصري فانها تفوقها بالحياة الطافحة في جميع مظاهرها ، ولا يخفى ان هذه الحياة من المميزات الفارقة في الفنّ الفنيقي بتمثيل الحيوانات . لقد رأى الفنّان امثلتها تسرح وتمرح في بلاده فمثلها حيّة قويّة ، كما امكنه ان يشاهد فرس النهر في رحلاته العديدة الى مصر ، او بين الحيوانات الغريبة التي كانت تأهل جنان ماوكه .

ثم كان زحف الرعاة ، او الهكسوس ، على مصر. فانقضى عصر الازدهار هذا ، كما انقضى عصر التأثير المصري في بعض منتجاتنا الفنية . ونحن لا نعلم مبلغ الدور الذي مثّله الفنيقيون في هذا الزحف . الّا اننا نتحقّق تغيّرات عميقة في العادات المدفنية ، كما نشهد تكوّن نوع جديد من الخزفيّات . وان تكن الجعلان المتكاثرة في المقابر لا تزال تدلّ على العلاقات التقليديّة بين مصر وفنيقية ، فان الطلاء الأحمر ، الذي كان يصبغ آنية المدافن الملكية في القرنين التاسع عشر والثامن عشر ، اخذ يتراجع امام طريقة جديدة ترسم الأشكال رأساً على الاناء. اما هذه الزخارف فتظهر غالباً دوائر ، او خطوطاً ، او اشكالاً لولبيّة. واماّ هيئات الآنية فاكثر تنوّعاً واوفر رشاقة من السابق ، دالّةً على تأثير الشمال والغرب معاً. حتى اذا كان القرن الرابع عشر برز التأثير الميقيني في آنية القبر المكتشف في القريّة ، قرب صيدا. وفي القرن الثاني عشر تكاثرت الآنية

المسطّحة البطن. وفي القرنين الثامن والسابع ، حفلت قبور تلّ الرشادية ، قرب صور ، بكثير من الآنية قُلّدت فيها اشكال الخزف القبرصي . فبرزت الرسوم المتعدّدة الألوان ؛ وتكاثرت الآنية الصغيرة المستطيلة الشكل ، المزيّنة بالدوائر الموحّدة المركز ؛ كما تكاثرت الآنية الضخمة البطن ، الواسعة الفم ، المزدانة بالرسوم الهندسية والنباتية .

ولم تشأ الحفريّات حتى اليوم ان تكشف لنا عمّا يستحق الذكر من عهد الاتساع الفنيقي العظيم . فاضطررنا الى السكوت عن عصر هو من اعرق عصورنا ازدهاراً ومدنيّة ؛ منتقلين بزائر متحفنا الى العصر اليوناني .

الى هذا العصر اليوناني يرقى القبر المكتشف في الشيخ زناد ، قرب طرابلس ؛ والحافل بكثير من الآنية الخزفية الجميلة . واجملها كوب على شكل راس خنزير ، ازدان مقبضه برسم يمثّل اولاداً يلعبون . فيرمي احدهم كرة في منفذ خاصّ ، بينما ينتظرها الثاني في قفزها ، ويتسلّح الثالث بالقوس . والرابع يستعدّ للقفز . والخامس يقشط الزيت عن جسده المدهون بمقشط نرى مثالاً عليه في احدى خزائن متحفنا ، وهو من البرونز .

ومن آثار العصر الهليني الخزفية إناء صوّر عليه بالحفر الناتئ إله مجنّح يضرب على القيثارة .

ولدينا كثير من التماثيل البرونزية الصغيرة ترقى الى العصر الروماني . اهمها تماثيل ڤينوس ، منها واحد يمثّل هذه الالاهة عند خروجها من الحمّام اذ فاجأها جوپيتر فالتفتت باشارة تدلّ على الخفر . وآخر يمثل الالاهة نفسها ، وقد امسكت بيدها مرآة ، وهمّت ترجّل شعرها باليد الاخرى . ومما يجدر بالذكر في هذا التمثال منطقة تشدّ صدر ڤينوس ، على نحو ما كان معروفاً عند الرومان في ذلك العهد ، وكثيراً ما اثارت هذه المنطقة احتجاج الرومانيين لأنها كانت تبدي الى اجسام الفتيات بضغطها على صدورهنّ .

ومن هذه التماثيل عدد يصوّر كوبيدون حاملاً مشعاله ، مزمعاً ان يحرق به القارب .

ومنها ما يمثل پان ، اله الغابات ، البادي على شكل نصف انسان ونصف تيس .

وفي هذا الجناح عدد من الآنية الزجاجية الشفّافة شفوفاً متباوجاً . وهو نوع واسع الانتشار في العصر اليوناني . وكثيرًا ما دُعيت هذه الآنية بالبكّاءات لانها كانت توجد في النواويس او حولها . على انها في الحقيقة آنية للطيب . وعلى بعضها رُقم دُعائيّة بالخير والهناء .

وقريباً منها مجموعة من الأقفال والمفاتيح المسنّنة . ولم تكن المفاتيح اذ ذاك تدور في القفل . انما كانت اسنانها اذا دخلت فيها خروق لسان القفل هبطت به فانفتح . وهو نوع من الاقفال لا يزال يُستعمل حتى ايامنا في ابواب الجنائن وفي ابواب بعض البيوت ، ولا سيما في قرى سورية .

والى جنب هـذه المجموعة ، في خزانة خاصّة ، مجموعة لادوات الزينة والتبرّج : علب صغيرة ، وقوارير من الخشب لانواع الحمرة والكحل . ورقائق من البرونز تمزج عليها الادهان والطيوب . ومرائي من البرونز كانت مغطاةً برقائق من الفضة . وغيرها مرائي مزدوجة تدخل الواحدة في الاخرى . ومعها مرآة من الخزف تحتوي على قطعة من الزجاج . ولا يخفى ان اهل بلادنا كانوا اول من نشر في العالم المرائي الزجاجية ، وذلك في القرن الخامس بعد المسيح .

وفي الخزانة التالية بعض الادوات الخاصّة باللبس . منها الشارات المتعدّدة الاشكال . وقد كان استعمال الشارة معروفاً في فنيقية منذ القرن الرابع عشر ق . م . بدأت على شكل يدٍ مكوّعة . ثم اتخذت في العهد الروماني شكل القوس . وكانت تزين كتف الرداء الروماني . وكثيرًا ما كانت تُصنع من البرونز المفضّض او المذهّب . وقد تُصنع من الذهب الخالص .

الطبقة السفلى

تختصّ الطبقة السفلى من المتحف بعرض كلّ ما له مساس بالفنون المدفنيّة. وقد احتلّ وسطها أثر لا نبالغ اذا قلنا انه ذو اهميّة عالميّة. هو ناووس أخيرام الراقي الى القرن الثالث عشر ق. م. والمحفور عليه الرقيم المشهور (الرسم ١٠) تظهر الكتابة على جهة صغرى من الناووس وجهة كبرى من الغطاء. وهذه ترجمتها، كما عرضها العلّامة رينه دوسّو.

> . . . بعل، ابن أخيرام، ملك جبيل، صنع هذا الناووس لأخيرام، ابيه، كمترله الابدي.
> وان كان ملك من الملوك، او حاكم من الحكّام، ينصب معسكره امام جبيل، ويكشف هذا الناووس من تحت البلاط، فليكن حاطور قاضيه. ينهار عرش ملكه ويهبط الخراب على جبيل، بينما هو يمحو هذه الكتابة على مدخل (؟) الجحيم (؟)

وفضلًا عن هذه الكتابة التي تجعل للناووس المحلّ الرفيع في الآثار العلميّة، فان الزخارف التي ازدانت بها نواحيه كلّها ترفعه الى الدرجة العالية بين الآثار الفنيقية.

يستند الناووس الى اربعة اسود تبرز رؤوسها مكشّرة ناتئة في اسفل الزوايا الاربع. وفوقها، على الجهتين الكبريّين، عدد من مقدمي التحف والهدايا يسيرون طائفين نحو الملك الجالس على عرشه، وامامه مائدة حافلة بالاطعمة. ويقود الطواف ابن الملك، حاملًا باحدى يديه مذبّة، وبالاخرى منديلًا. ووراءه الطائفون يحملون صحاف الطعام، والجرار، واحدهم يقود جدياً، بينما غيرهم يرفعون الايدي علامة التكريم. وبين هؤلاء امرأتان تعرفان بسعة ثوبيهما! وعلى كل من الجهتين الصغريّين تظهر النوائح النادّابات يمزّقن ثيابهنّ عن صدورهنّ، ويخدشن الاثداء بالاظافر، ويضربن الرؤوس مظهرات الحزن العميق.

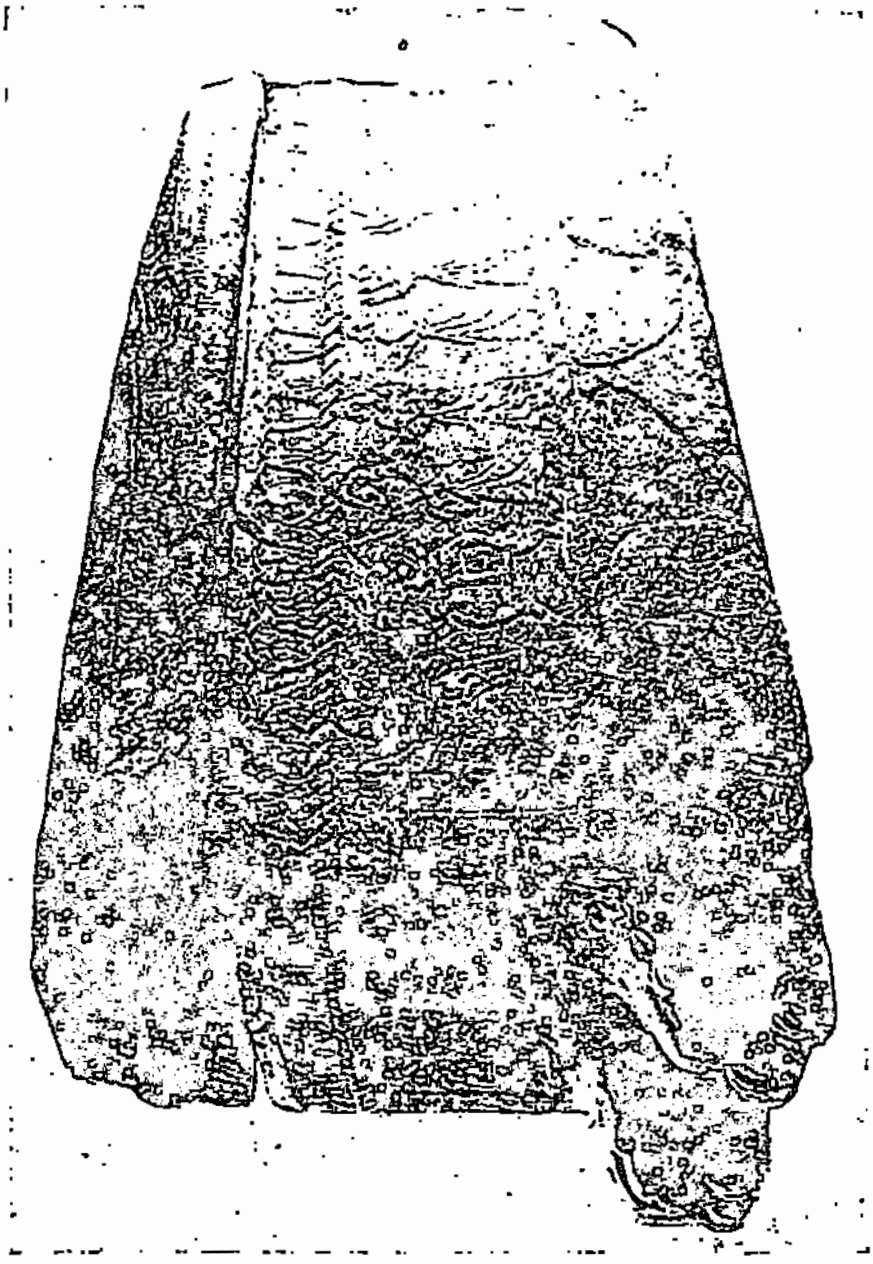

الرسم ١٠ – تابوت أخيرام

اما الغطاء فيظهر عليه رسم رجل اسود اللحية ، يرتدي ثوباً مقلماً فوقه رداء مفتوح ، وفي احدى يديه زهرة لوتيس ينشق عرفها ، بينما يحمل في اليد الثانية هنة مستديرة . وامامه شخص يشبهه رافعاً يده علامة العبادة .

وقد اكتشف ، مع هذا الناووس ، عدد من الآنية المتنوعة ، اهمها انا . من حجر الشطوط عليه خاتم رعمسيس الثاني ، وقطعة من العاج ميقينية التأثر . افادت كلها في تأريخ الناووس راقية به الى القرن الثالث عشر ق . م . ولا يخفى ان الحثيين كانوا ، في هذا القرن ، قد احتلوا سورية الشمالية . فاهتم رعمسيس الثاني بايقاف زحفهم ، وتقدّم حتى حاربهم قرب قادش ، على بحيرة حمص .

ونلاحظ ان في زخرف الناووس شيئاً من التأثير الحثي ، ومن التأثير المصري .

كذلك في وسط القاعة السفلى ، ومن عن الجانبين ، حنايا خاصّة لعرض النواويس .

منها واحد يزدان برسم سفينة شراعية لا مجارة فيها ، وهي جميلة الصنع . ولعلّها رمزٌ لسفر النفس البشرية الى ما وراء هذا العالم .

وهناك آخر يزدان برسم نسر ، رامزاً الى تمجيد النفس في عالم الخلد .

وفي غير ما تقدّم من النواويس ، تظهر النفس على شكل امرأة مجنحة بجناحات الفراش تستريح بجلسة الحزن والكآبة .

وعلى غيرها يظهر تتين غيزيس موقفاً بيده دولاب الحظ .

اما رؤوس الميدوز فغايتها حفظ الاموات من الارواح الشرّيرة . ولا يخفى ان الميدوز كانت احدى الغرغونيات الثلاث . فتوصلت ، على رغم قبح منظرها ، الى لفت نظر جوبيتر ، فاثارت غيرة جونون . فارسلت اليها هذه برسيه . فاستعار اجنحة مركور ، واغتال الميدوز فقطع رأسها . ومن ثمّ اخذ الناس ينقشون رأسها على النواويس ، لأنّ عينها المفتوحة دائماً ، تجتذب كل عين تجرؤ على ان ترفع اليها النظر .

واما رؤوس الاسود ، حاملات السلاسل ، فقد قُلّد فيها رؤوس البرونز

التي كانت تُلصق بنواويس الخشب ، وتعلّق بها السلاسل .

ومن انفس آثار المتحف ، القبر المكتشف في صور ، والذي مُثل بكامله في الجهة الشمالية من الطبقة السفلى . وهو يرقى الى القرن الثاني للمسيح .

يزدان هذا القبر بمشاهد تصويرية هي اجمل ما اكتشف حتى اليوم من نوعها في لبنان وسورية .

يصل الانسان الى هذا القبر ، المحفور كله في الصخر ، بسلّم من نحو ثلاثين درجة . فيجد ، على يسار المدخل ، ردهة فسيحة تُستعمل لتجهيز الميت . وحول الردهة شبه مقعد مستدير على الجهات الاربع . وكان الموتى يُدفنون في نواويس من الرصاص او من الخزف تدخل في حفائر خاصّة منقورة في جدران الردهة . وكان في هذه الجدران مسامير ، لا تزال آثارها ظاهرة ، لاجل تعليق سلاسل الزهور التي كان اهل الميت او اصدقاؤه يقدّمونها فتعلّق على مدخل القبر . والى يمين الردهة رسم باب مزوّر ، جميل التلوين ، يوهم بانه يدخل الى مقرّ الاموات . وفوق ذلك ارواح مجنحة تحمل اكاليل الزهور ، وعدة مشاهد يونانية مستوحاة من الميتولوجية ومن الإلياذة .

فوق المدخل المزدان ، من عن الجانبين ، بعرش لطيف ، تظهر دمية نصفية لسيكه المجنحة بجناح الفراش . ومن جهتي المدخل فتاتان من بنات البحر ، تنفخ احداهما بالناي ، بينا تضرب الثانية على القيثارة لتفتنا الارواح الشريرة فتجذباها وتخلّصا الاموات من شرّها .

والى اليمين رسم هركول ، وقد ربط سربير ، الكلب الهائل ، حارس مدخل الحقول السعيدة . وعلى مقربة من هـذا المشهد ، جلس اخيل مغتبطاً بانتصاره ، راثياً عرشه بجلال ، وقد ركع على قدميه الملك فريام الشيخ ، متكئاً على عصاه الوافرة العقد ، طالباً منه جثة ولده هكطور . اما هذه الجثة فظهرت في احدى كفتي الميزان ، وفي الكفة الاخرى قيمة الدية المطلوبة (الالياذة : النشيد الرابع والعشرون) .

وكان صدر الردهة مزداناً بمشهد لا يقلّ جمالاً يظهر سركور مجنّحة المهودة ،

قائدًا مركبة فلوطون السريعة . وبين يديه تتخبط پروسرپين ، وقد تشعث شعرها وتزايد صياحها . فاسرعت ميغرة متسلحة بحربتها ، ووراءها ديانة نازعةً سهماً من كنانتها لترسله على الخاطف . اما پروسرپين التي اختطفها اله المناطق السفلى فسوف ترد الى امها ديميتير ، ستة اشهر في السنة .

والى الشمال يظهر هركول عائدًا بألكستيس الى اسرتها الحزينة . وألكستيس هي المرأة الطوف الشفيقة التي ضحت بنفسها بدل زوجها أدميتوس اذ حكم عليه بالموت آلهة الجحيم .

وهناك طنطال ، وقد احاطت به الاشجار المثمرة الا ان الهواء يهبّ عليها فيدفعها هاربةً من امامه . وهو يمدّ يديه ويتطاول عبثاً لينال ثمرة يخفف بها عطشه وحرقته . فلا يُفلح .

اما الغاية من هذه المشاهد فهي تعزية الأهل المفجوعين ، بان يروا امام اعينهم مصائب الأبطال والآلهة انفسهم ، اذ حرمهم القضاء من احبتهم ثم اعادهم اليهم .

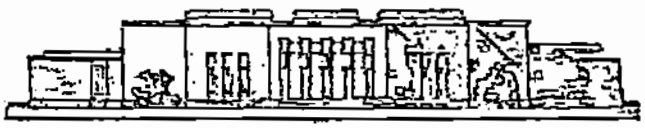

أبعادٌ مشرقيـــة

بقلم سعيد عقل

انا الشرق

بعيدًا على شاطئ الذاتِ ، في خاطر الغيهبِ ؛
حوالى مطلِّ الوجود ، في عَبَقٍ طيِّبِ ،
مُهِلٍّ من النفحة الأزليّـةِ ، معذوذِبٍ ،
شددتُ يدَ السرّ ، وهو على المهد بعدُ ، غبي .

انا ابنُ الدهور ، ابنُ لبنانَ ، وَعْيُ الخليقةِ بي ؛
انا جُبْتُ ذاتي ، وأفرغتُ أغنيّةَ المطلبِ ،
نَهلتُ الذهولَ ، نَهلتُ شحوبَ الفتى المتعبِ ،
وَصَمْتَ المساء يلفُّ اليتيمَ وقبرَ الأبِ ؛
نهلتُ الشقاء المُهِلَّ جميلًا كوجه نبي .
انا ثروةٌ كالكآبة عمقاً ، وكالغيهبِ ؛
غنيٌّ أحسُّ الوجودَ غبارًا على ملعبي .

يقولون : قافلةٌ على الغربِ ، لم تُغلبِ ،
تشيدُ ، على الفتح ، أثبتَ من مجدك الخُلَّبِ ،
لها صفحةُ الأرض مرمًى ، وناصيةُ الكوكبِ .
قلِ : الفتحُ غمسُك في الذاتِ كفًّا من الصُلْبِ ،
ورَشفُك نفسَك رَشفَ العتيق من المشربِ .

ابعاد

يا بعض ما أنت ، يا بعيدُ ، أهواكَ تفنى بك الحدودُ ،
ويسبحُ الآنَ في مراميك ، حاتمًا ؛ فالدهرُ جودُ ،
وكلُّ أُمنيّةٍ لِقاءٌ ، وضمّةٌ سمحةٌ ، وعيدُ .
ما انتَ ؟ لونٌ في خاطر الياسمين ، ام رغبةٌ كؤودُ ،
تُرى ولا تُلمس : امتناعٌ يقوى ، وإلحافةٌ تزيدُ ؛
والوقتُ بين البقاء والموتِ ، حائرُ المرتجى ، شريدُ .
جوٌّ غريبُ الطيوبِ ، حلوٌ كثغرها ، وهي تستزيدُ ،
تغيب فيه القوى ، وينهار دون لذّاتنا الوجودُ .

هنيهة

عالَمٌ طَيٌّ نَغَمٌ ، يتحدّاه العدَمْ ؛
ضَمّةُ القَبْلِ الى البَعْدِ بعُمْرٍ مُتَهَمْ ؛
دَقّ كالوهمِ ، وتأوي ذَرّةٌ منه الأمَمْ ؛
لا بِناءٌ من خيالٍ لم يُرَعْرِعْهُ رِمَمْ ؛
او وثوبٌ في ظنونٍ لم يُفَجِّرْه هِممْ ؛
يُخصِبُ الفِكْرةَ يَفتضُّ بها السرَّ الأصَمْ ،
ويُعرّي بيديه الشمسَ في قلب القَتَمْ :
فاذا نحن ، الى اللهِ ، شِراعٌ في خِضَمْ !

رجوع البحارة

أغنية

الى البلد الوادعِ ، الأسمرِ ،
نسيجِ الاساطيرِ والذكرياتْ ،
وأغنيّةِ السفنِ المقلعاتْ ،
مُحمّلةِ الفكرِ للكائناتْ ،
وللأعصُرِ !

الى البلد الحلوِ ، حيثُ النمامْ ،
بلونِ هديلِ الحَمامْ ،
أجَدُّ بياضاً ، وأغنى افتراضاً ، وادنى صلاةْ
الى مسمعِ اللهْ !

الى البلد الحلوِ ، حيثُ الترابْ ،
غبارٌ ينفّضه ، في الايابْ ،
جوادُ البطلْ ؛
غبارْ .
... تودّ الدولْ
لو انّ لها منه غارْ !

الى البلد الحلو ، حيث التلال
وكأمّ حنين
بناها الخيال ؛
وحيث الفضاء
ضياء
يشيع من الياسمين !

الى حَنوةٍ من أبٍ
يظلّ ، على الدهر ، حالمْ
بجُزرٍ له وعوالمْ ،
فيرنو ، جريحاً وباسمْ ،
الى المغربِ !

الشيخ محمد ابو الوفاء الرفاعي*

١٧٦٥ - ١٨٤٧

بقلم الاب فرديناند توتل اليسوعي

خصّ الشيخ كامل الغزي آل الرفاعي بفصل من فصول المجلد الرابع من تاريخه « نهر الذهب ». ولم ينته من تأليفه لما وافته المنية فتركه مخطوطاً رؤوس اقلام ، لكنه ذكر في المجلد الثاني من الكتاب ذاته ، في وصفه المزارات والزوايا ، بيت الرفاعي واقاربهم مما يؤدّي مادّة لتاريخ الاسرة. اما الشيخ راغب الطباخ فاستقى تعليمات عديدة عن ابي الوفاء الرفاعي وعن الرفاعيين من مؤلّفات الشيخ وفاء ذاته ومن غيرها من المصادر ككتاب روض البشر للشطي ، وقلادة الجوهر لابي الهدى الصيادي. وذهب بالاخبار والاعلام متسرعاً ، شأنه في تاريخه العام. على انه افادنا بتعليمات قيمة سهلٌ منالُها في مجموعة ما جمعه من اعلام النبلاء.

على هذه الاصول الثابتة ، وعلى ما اخذناه من الاحياء معاصرينا من الفوائد ، وضعنا اساس ما كتبناه عن ابي الوفاء. ومن الكتب التي رجعنا بالقارئ اليها نحتنا مواد بناء ترجمة تاريخية مستوحين نظام ترتيبها وتنسيقها مما رأيناه وعرفناه في حلب مسقط رأسنا من اخلاق ومشاهد كانت في سني صغرنا ولم يزل الكثير منها في يومنا يمثل تمثيلاً حياً موافقاً للحقيقة ، حالة البلدة في القرن الماضي .

على ذلك المسرح الخيالي تعرّفنا الى اسرة الرفاعي ، ثم اظهرنا محمد وفاء طفلاً في حضن ابويه ، وتلميذاً بين ايدي مؤدّبيه ، وشاباً محط آمال اقاربه واصدقائه ، ورجلاً مفكراً ادبياً يشار اليه بالبنان ، وشيخاً وقوراً مقصوداً من مريديه ، في تلك البيئة الاسلامية المتورّعة المستيقظة بمظاهر التقوى واحياء مراسيم الطرق الصوفية عما فقدته من عزّ ونفوذ بانتقال سلطة السيف من العرب الى الاتراك .

---

* هذه الترجمة نتمة لبحثنا في اولياء حلب المنشور في «مشرق» السنة الثالثة ، ص ٢٢١

الاسم واللقب

ان لقب الرفاعي معناه المنتسب الى احمد بن علي بن ابي العباس مؤسس الطريقة الرفاعية. وهذا توفي في ٢٢ جمادى الاولى سنة ٥٧٨ هجرية (٢٣ ايلول سنة ١١٨٣) في ام عبيدة من مقاطعة واسط وسمي الرفاعي نسبة لقبيلة رفاعة. وكانت تلك القبيلة قد هاجرت سنة ٣١٧ هـ. (٩٢٩ م) الى اشبيلية في اسبانية ثم انفصل منها رجل اسمه احمد قاصداً الى البصرة فكان جد مؤسس الطريقة. وهذا اخذ الاجازة، ولبس الخرقة، وكثر عدد مريديه وخلفائه، ومنهم الرفاعيون في حلب.

اول من نتعرف اليه من الرفاعيين الحلبيين شاهين. كان شريفاً وجندياً، ومات سنة ١٦٩٥ م. وبعد موته بخمسة اشهر، ولد ابنه عمر، جد ابي الوفاء صاحب المنظومة، وربي في حضن عمه عبد القادر. تعلم القرآن ودرس في المدرسة الحلوية، وتلقن التجويد، واخذ الالحان وكيفية الانتقال من نغم الى نغم مع طول النفس بالانشاد فبرع في ذلك الفن. وقرأ الاجرومية وتضلع من المعارف الدينية ونسخ الكتب بيده وصار عالماً من العلماء بالمعنى المعهود به عند المسلمين (راجع المشرق ١٩٤٠، ص ١٢٩). وفي السنة ١١٤٨ عُهد اليه بامامة جامع الرضائية ومدرسته المعروفة بالعثمانية فانتقل الى دار عظيمة قريبة من الجامع المذكور مشهورة بدار الجربوعي وهناك رزق ولداً سماه محمداً الا انه لم يقم طويلاً في تلك الدار لرداءة مناخها.

وللرفاعيين في يومنا زاويتان او اكثر، منها واحدة في حارة البياضة، وثانية بالقرب من حارة الاكراد. ولهم دور السكنى في كلتا الزاويتين.

ثم نعلم ان محمداً تزوج ثلاث زوجات، ونعرف ايضاً انه كان غنياً وجيهاً فلا يبعد ان يكون قد اسكن كل واحدة منهن بيتاً خاصاً بها كما سيفعل ابنه صاحب المنظومة الذي سنراه يقضي يوماً في حارة الاكراد ويوماً في البياضة.

وكانت احدى زوجات محمد عمر شاهين الرفاعي الست آسية بنت السيد محمد الزنابلي الشريف، ووالدة محمد ابي الوفاء.

من حضن الوالدة الى المدرسة القرآنية

ابيض اللون صبيح الوجه اسود العينين مليح الانف والفم على غاية من الجمال ، بهذه الصفات وصف احد مترجمي محمد وفاء[1] ملامحه الخارجية . ولم يذكر مؤرخو شيخنا البيت ولا الحيّ اللذين تدرج فيهما . لكن حفيده الامام توفيق افندي الوفاعي أكّد لنا ان ابا الوفاء كان يسكن حارة الاكراد حتى اذا دخل السنة الخامسة او السادسة من عمره ارسله ابواه الى المدرسة في جوار مسجد خيرالله . فيدخلها الصبي ويتعلم قراءة القرآن وكلما يبلغ منه جزءا يرسل ابوه الى المعلم هدية فيفرح المعلم ويفرح الصغار . حتى اذا خُتِم القرآن دُعي المعلم مع الاولاد الى بيت الولد الناجح في دروسه وتقام لهم حفلة شائقة قد طالما شهدنا من امثالها في صبانا : يسيرون موكباً يتقدمه المطربون وضاربو المزاهر والطبول والعازفون بالناي ، وتمشي وراءهم زمرة الدراويش من الطريقة المولوية او غيرها . ومن المعلوم ان ابا الوفاء سوف يناخر بطريقته الوفاعية ويسافر ويقطع الصحراء للوقوف على اسرارها . فلا شك انه ربي على الولع بمظاهرها وقد حفّت به منذ نعومة اظفاره . اليك الاولاد يحملون الاعلام الصغار وغيرهم يحمل الاعلام الكبار ويخفقون بها على الرؤوس في الازقة المكتظة بالمارة فتقف حركتها ويصطف فيها الناس الى اليمين والى الشمال ويوسعون الطريق للموكب . ويمر الولد راكباً على حمار ابيض ومن ورائه شيخه راكباً على برذون وبيده العصا ، عصا التأديب ، وهناك رجل يحمل الكرسي وعليه المصحف ، وغيره بيده المبخرة فيبخر دفعاً لشر الجن فلا يحسدوا الصبي الناجح ، وغيره ينثر على الناس شعيراً اتقاء للاصابة بالعين . هو الطواف في الشوارع ، والنساء ينظرن اليه من خلال شعرية الى ان يعود القوم بالصبي الى بيته فيضيفهم الاب الفستق والزبيب وبزر البطيخ والجبس والقضامة الحلوة والمالحة وشيئاً من الفستق الحلبي اللذيذ .

---

١) راجع ط ٧ : ٢٩٠ عن المرحوم قسطاكي حمصي . وسألت المرحوم قسطاكي عن سنده فيما رواه عن ملامح محمد وفاء ، فقال انه اخذ وصفها عن حفيده .

مرادنا طلب العلم

عظيماً كان شأن الخطّ في ذلك العهد والمطابع العربية كانت نادرة ، والآلة الكاتبة غير موجودة . فكان كل طالب مجتهد طموح الى بلوغ المعالي ، لا بد له من ان يتقن قواعد الخطّ . في سبيل ذلك الاتقان عمل محمد وفاء وهو صبي يافع ويبلغ مأربه فصار يحسن الكتابة بيده اليمنى واليسرى وشهدنا من اثاره في ذلك دليلاً واضحاً على نجاحه . نشأ وترعرع وصار يرافق اباه في روحاته وجيئاته ، وزار معه يوماً الشيخ اسماعيل الكيالي فكان لتلك الزيارة تأثير بعيد المدى في حياتـــه لان ذلك الولي ابن الولي كان من الـسادات الاشراف قوي الاحوال والكرامات اعترته الجذبة فصار يخلع ثيابه ويدور في الاسواق فتهابه العامة وتخشى مقاومته ومخالفته وبطشه وكان يتكلم احياناً كلاماً غير مفهوم فتعتبره الناس اشبه بكلام ملهم واذا التقطوا منه مـا فهموا معناه اخذوه استوسموا منه خيراً . وكذا جرى مع محمد وفاء فانه لما وقف مع ابيه بحضرة الشيخ اسماعيل الكيالي نظر الشيخ اليه وسأله قائلاً:

« اي شيء تقرأ من العلوم؟ »

فتحاشى الغلام الجواب بحضور ابيه فتكلم عنه محمد الرفاعي ابوه وقال:

« الان مشتغل بالكتابة »

فقال الكيالي: «ما لنا والكتابة نحن مرادنا العلم والتعلم هذا الزم لنا من غيره » .

فخرج محمد وفاء وعقله وقلبه توّاق الى تحصيل المعارف.

وكانت المدرسة العثمانية شهيرة في ذلك العهد بوقفها في مركز المدينة القديمة في جوار الاسر الاسلامية الكبرى، وببناياتها الفخمة ومنارتها اجمل منارات حلب وما الى ذلك من مقام للصلاة ودور للسكنى وفسحة وارفة ومياه، وكانت ممتازة بجلسها ومكتبتها ودروسها وكان من اساتذتها الشيخ حسن المدرس المولود في كلز سنة ١١٦٨ هـ. (١٧٠٤ م) والمتعلم فيها والراحل منها الى قيصرية وبهنسة ، والمقيم من بعد في حلب ، موقّراً بالعلوم التي تلقنها في اسفاره فكان يعلم فيها

اللغة التركية ويستحق من ثم لقب المدرس لنفسه ولأهله. فتعلم عليه محمد وفاء وكان مع ابيه لما لقيا الشيخ مصطفى الكوراني فيما كان راجعاً من حفلة الذكر الشاذلي فاستحسن الشيخ مشاهدة الفتى ودعاه لسماع دروسه في العثمانية ايضاً. وكان صوفياً اديباً فلا بد ان ايقظ في محمد وفاء المواهب الادبية والميل الفطري الى التصوف.

ومن كبار العلماء الذين تعلم عليهم محمد وفاء اسماعيل المواهبي المولود سنة ١١٦٠هـ. (١٧٤٧م) وكان يختلي في الصالحية كل سنة اربعين يوماً ثم يأتي الجامع الكبير فيجلس على كرسي موضوع تجاه مقام زكريا. ويجلس الناس فيسمونه. وكأني ارى بينهم محمداً ابا الوفاء الرفاعي غلاماً غضاً يلفت الانظار بملامحه الذكية يقعد بين السامعين فيتعلم العلوم كما كانوا ولم يزالوا يلقنونها في جوار المساجد من قراءات وصرف ونحو وبيان ولغة وفقه وتفسير الى غير ذلك من المعارف التي يفاخر بهـا اشراف المسلمين ارثاً خاصاً بهم فيحافظون عليه ويسلمونه خلفهم. فتعلم محمد وفاء ونبغ واثرت معارفه بمؤلفات شعرية ونثرية وقد وفقت الى تحصيل المنظومة التي خصصناها بهذا الدرس وفتشت عن باقي المؤلفات في حلب فلم اعثر الا على القليل منها بعدما ان تجهزت المنظومة للطبع اما لاختها فلا اقل من ان ارويها على علاتها اخذاً عن راغب الطباخ وهذه هي:

١ رسالة في خواص الاسماء السهروردية وسلسلة اسناده بالاذن بها
٢ مجموع فرائد ومجربات له مأذون بها من اشياخه
٣ رسالة فقهية في اركان الدين الخمسة
٤ القصيدة المجانية وشرحها لأحد الافاضل
٥ الفصول الوفية في السادة الصوفية مشتمل على مقدمة وعشرة ابواب
٦ منظومة في ٧٥٦ بيتاً نظم فيها من دفن في كل تربة وزاوية من علماء الشهباء واوليائها.
٧ السوانح الراقية في الفواتح الكافية (مجهول)
٨ رسالة في بحث سجود القلب الذي ذكره سيدي محي الدين ويليه مختصر ترجمة سيدي محي الدين
٩ رسالة نظم بها الاولياء والصحابة لا على الترتيب وترجم كل واحد منهم بالافراد
١٠ رسالة في بيان الجوامع والمساجد والمدارس والتكايا التي في حلب. لم اطلع عليها
١١ مولد نثر اوله يامن اظهر كبرياء مجده

١٢ مولد نثر اوله الحمد لله الذي انزل على عبده الكتاب
١٣ مولد نظم اوله بعد حمدالله رب العالمين (مطبوع)
١٤ شرح الجاجرتية وبيان خواصها
١٥ مولد اوله الحمد لله الذي افاض من قبضة فضله المحمود على صفحات الوجود
١٦ مولد اوله الحمد لله الذي اظهر شموس انوار النبوة المحمدية .
١٧ مولد اوله الحمد لله الذي اطلع في سماء الازل شمس انوار معارف النبوة
١٨ رسالة في خواص دائرة سيدي ابي الحسن الشاذلي
١٩ (كذا) رسالة استثنائية
٢١ (كذا) رسالة في خواص حرف القاف ويليه دعاء لطيف وورد ويليه قصيدة استثنائية له .
٢٢ رسالة ضبط بها اسماء اهل بدر على القاعدة النحوية وترجم بعضهم ويليها استثناء باسمائهم بالافراد والترتيب

على ان الراوية ذاته اتانا باشعار من نظم المترجم وهي جديرة بالدرس فضلاً عن المنظومة وحقيقة بان تزيدنا معرفة الى شخصية ابي الوفاء الرفاعي .

الشاعر الاديب والمفكر

ان ما اطلعنا عليه من نظم الرفاعي قد ينقسم الى ثلاثة انواع : الشعر الغزلي ، والوصفي ، والتعليمي .

فالتعليمي ممثل في المنظومة وقد وفّيناه حقه من الكلام في مقدمة البحث عن المنظومة . اما الغزلي فوددنا لو اهملنا ذكره وما كان اليق بصاحب المنظومة عن اولياء حلب المشيد بذكر رجالها الصالحين ان يخصّ شعره بمواضيع الحب الصالح التي ترتاح لها القلوب ولا تبلبل الضمائر .

والغريب في ذلك ان راغب الطباخ فتح مجالاً واسعاً لهذا النوع الفاسد من الشعر في ترجمة الشيخ ابي الوفاء وفي ترجمة غيره من الاعلام النبلاء . ولم اقالك في مجالسة الشيخ راغب عن معاتبتي اياه معاتبة الادب والصداقة في ما كتب فقال لا محظور على الصوفيين اذا استعاروا لهجة العشاق المجونية بالمعنى المجازي في مخاطبتهم الحبيب الالهي شأن ابن الفارض ، وعلى ذلك الاسلوب يرى ابو الوفاء في شعره الغرامي واني لا ادري كيف لا يستوحش الصوفي من هذه الاستعارات الشهوانية .

واحسن محمد ابو الوفاء الرفاعي في الشعر الوصفي فقرأناه فامتلأت صدورنا من العواطف الشريفة التي يهيجها في كل من يذكرها مذبحة جامع الاطروش الرائعة وقد ذهب فيها عدد غير قليل من الاشراف الحلبيين ضحية بطش الانكشارية وطغياتهم، ومنهم ابن الشيخ محمد وفاء الرفاعي. ولا بد لفهم قصيدته فيها من ان نعود الى تاريخ حلب فنتصفح اخباره ونقف على اسباب العداوة بين الاشراف وخصومهم مما ادّى الى كارثة آلَ امرُها اخيراً الى الايقاع بالانكشارية انفسهم، والى اضعاف السلطنة العثمانية وابتداء انحطاطها. والبحث يقتبس نوراً من ترجمة الرفاعي ويفيدها ايضاحاً في عصر قريب العهد منا بالزمان بعيد بالعادات والاخلاق، وقد مضى غير مأسوف عليه.

كان محمد ابو الوفاء الرفاعي في السنة ٤٦ من عمره، لما حدثت مذبحة جامع الاطروش. رواها الطباخ والغزي رواية واحدة تدلّ على مصدر واحد، وسمعنا من معاصرينا شيوخاً سمعوا تفاصيلها عن اجدادهم. وخلاصة الخبر انه في رمضان من السنة ١٢١٢هـ. (١٧٩٧م) تغلب الانكشارية على السادة الاشراف وهاجموهم في البلدة اينما استطاعوا السبيل اليهم. وان الشيخ محمد وفاء كان في بيته وابنه معه لما فاجأهما الاشرار ولم يحترموا هيبة الشيخ ولم يشفقوا على دموع الاب وذبحوا ابنه امامه. فهرب محمد وفاء واختفى. هذا ما اخبرنا عنه الشيخ عبد القادر جنباز عن ابيه.

وفي غضونها كان غيرهم من الانكشارية يهاجمون البيوت ولا يحترمون امرأةً ولا يحنّون على ضعيف. ولم تكن احياء البلدة القديمة ومنها حارة السيدا الموجودة الى يومنا في جوار كنيسة الآباء اليسوعيين القديمة غرباً مع ما لها من سراديب ومنعكفات متينة البنيان كانها اروقة الحصون لتمنع الانكشارية عن اقتحام المساكن، فالجئ الاشراف الى مهاجرتها وذهبوا يلتمسون لهم مأمناً في جامع الاطروش ودور الصلاة مقدسة عند جميع الامم فاذا دخلها طريد ليس لقوة بشرية حق في ملاحقته. وما بين جوامع حلب كان للاطروش مكانة خاصة فانه واقع بين القصيلة وساحة الملح وفي جوار القلعة، وعنده تعقد الاسواق كانها تستمد من هيبته مأمناً من ظلم الظالمين ونفاق المنافقين. وكان حكام حلب سابقاً يقيمون

فيه الصلاة ايام الاعياد ومنارته المثلثة الطوابق وباباه الفخمان واروقته وغرفاته تفسح مجالاً للعاكفين للسجود صفوفاً لرب الجنود ومما يزين سحنته ان ذكر الفقراء والمساكين منقوش عالياً على رتاج احد بابيه لان كافل مملكة حلب عمره في سبيلهم ابتغاء لوجه الله تعالى في العشر من شوال المبارك سنة احد عشر وثمانمئة من الهجرة النبوية فكان له ما اناف على الثلاثمئة سنة وهو محفوف بهيئة العبادة والالتجاء الى الواحد القهار لما دخل في حماه السادة الاشراف .

فتعقبهم الانكشارية ولما لم يستطيعوا دخول الجامع وقد اوصدت الابواب في وجههم ضربوا عليهم الحصار فمنعوا عنهم الزاد والماء ثم راودوهم على التسليم وامنوهم على نفوسهم . وما ان استسلم الاشراف الا نقض الانكشارية عهودهم وانقضوا عليهم كالوحوش الضارية فتكاً وذبحاً وتفحيشاً رواه المؤرخون ويأبى القلم تسطير وضعه في هذا المقال . وكان الحاكم التركي غائباً في غضونها .

تركت الحادثة المشؤومة ذكرها السيء على مدى الايام وتنزع عن مأذنة الاطروش طبقتها الثالثة كما تنزع العمامة عن الرأس اشعاراً بالحزن الجسيم ولم تزل الى يومنا في هذه الحالة الرثة ومن ذلك الزمان الى عهد قريب منا ظل الجامع الاطروش مهجوراً من المصلين .

هذه الحادثة تناولها ابو الوفاء ووضع فيه قصيدته الشهيرة ولا ادري هل يوجد في مجلدات الطباخ السبعة على ما فيها من منتخبات الاشعار والروايات الحسنة شعر يضاهي شعر ابي الوفاء في ذكر حادثة الاطروش بجلال الموضوع وصدق العاطفة وقوة البيان .

واعلم ان الشيخ مسلم مستسلم لاحكام باريه فاذا ندب لن يندب الا بعد جولة النظر في حياة الانسان كبير او صغير والاعتبار بمصيره في هذه الدنيا وكل من على وجهها فان . فارتفع في نظمه حكمه الى الاعالي التي بلغها من امثاله الزهاد والمتصوفون العرب . وظاهر انه قلد في هذه المنظومة قصيدة ابي البقاء الرندي في رثاء الاندلس . قال مبتدئاً :

لا يأمنن صروف الدهر انسان ولا نوائبه فالدهر خوّان
فكم اباد من الماضين من ملك له بسطوته عز وسلطان

ابن الملوك التي دانت لعزهم كل الرقاب ومن خوف لهم دانوا
ابن الجبابرة العادون اين اولو الاخدود ام اين كسرى ام اين ساسان
دعوا احابرا فصاروا عبرة رحلت منهم دياو واحياء واوطان
فاصبحوا لا ترى الا مساكنهم فليعتبر من له للحق اذعان
وهكذا الدهر لم تؤمن عواقبه له الينا إساءات واحسان
تبارك الله ما الاسواء دائمة وكلما قد مضى آن اتى آن

ثم يذكر الرفاعي ابنه القتيل ودم الاشراف المهراق فيسترسل الى عبارات وجد واسف تتردد بها الطبيعة حقوقها بعد التسليم المطلق لله ، هي عواطف القلب الجريح بذكر الولد القتيل والاشراف الذين اهرقت دماهم :

كل المصائب قد تسلى نوائبها الا التي ليس عنها الدهر سلوان
هي المصيبة في آل الرسول فقد سارت باخبارها في الناس ركبان
من آل بيت رسول الله شرذمة من النوابغ احداث وشبان

واخذ الان يخبرنا الخبر ويصفه الوصف المختصر كانه الجمر يكوي الفؤاد قال عن الاشراف عند دخولهم الجامع الاطروشي :

أووا لبعض بيوت الله من فرق من العدو وبالاعداء عدوان
فجاء قوم من الفجار تقصدهم بكل سوء لهم بغي وطغيان
لما أحاطوا بهم اليهم التجئوا فأمنوهم ولكن عهدهم خانوا
وباشروا قتلهم بما بدا لهم فبعضهم ذابح والبعض طعّان
او باقرٌ لبطون او ممثل او ضراب سيف وفتاك وفتان
او مقتفٍ اثرَ مهزوم ليقتله وقلبه لدم الاشراف ظمآن
او كاسر عظم مقتول وقاذفه كما تكسر اصنام واوثان
او خائض بدماء القوم مفتخرٌ بالفك مستولع بالقتك ولهان
وكل هذا وآل البيت ما رُقمت لهم عليهم يد والرب ديان
ان يستجيروا بجاه المصطفى نُشدوا او بالصحابة سُبّوا ليت لا كانوا
فلو سمعتَ عويل القوم من بعد إذ يستغيثوا لمدتْ منك أركان
يا رُبَّ مستنصر من ليس ينصره تحت السيوف طريح النفس غلبان
يا ربَّ والدة كيت على ولد فزقوه وما رقوا وما لانوا
يا رُبَّ ارملة ريعت مصاحبها وحولها منه ايتام وصيان

ولو كان في حلب آنذاك حاكم ذكي حازم ساهر على مصالح الرعية لما حدث ما حدث من سفك الدماء واثارة الضغائن التي سوف تسبب ذبائح غيرها مما يزول

امره اخيرًا الى خراب مملكة بني عثمان. لكن الباشا فضل ان يغيب ابان القتل والفوضى ولم يهمه أن غيابه في مثل تلك الازمة أشبه بهرب الجندي في ساعة الجهاد. ولم يخفَ امر المأساة عن السلطان سليم الثالث ، ولكن لم يكن بوسعه ان يكسر شوكة الانكشارية ، وهم ركن الدولة المتين وكان يهابهم اشد مما يهابونه. لكن السياسة التركية طويلة الباع بالحيل فماطلت. وجاءت حملة نابوليون على مصر وعلى فلسطين فشغلت البلاد عن المشاكل المحلية ووجهت الانكشارية الوفاً الى القطر المصري ومنهم سبعة آلاف حلبيون على ما رواه كامل الغزي (٣١٥:٣) وخرج معهم المتطوعون من الاشراف متناسين ما حلّ بذويهم من الغدر وفي الشدائد تذهب الاحقاد. ورجع الحلبيون من الحملة على بونبرت ظافرين وزيّنت البلد لقدومهم. وكان كلما خرج باشا ودخل باشا سعى في تقريب الفئتين المتعاديتين من اشراف وانكشارية ولسنا مطلعين على دور الرفاعيين في تلك الحوادث لكن ذكر وقوع ابن الشيخ محمد وفاء ضحية بطش الانكشارية والبيت الذي ختم به الرفاعي قصيدته قد يفيدنا ان صرخته سوف يتصدى لها السلطان وما هي الا صوت من الوف الاصوات التي كانت تتصاعد من اطراف المملكة العثمانية شاكية ظلم الاغاوات ومطالبةً بكفهم عن متابعة استبدادهم بالرعايا.

قال الرفاعي مستغيثًا بهم المناصرين :

الا ذوو نجدة الا ذوو همم الا ذوو غيرة للحق اعوان
الا عصابة حق للتقى انتدبوا لنصرة الدين اكفاء واقران
الا اماجد ذبوا عن نبيهم الا حماة لعرض المصطفى صانوا
اهذا جزاء رسول الله من فئة قلوبهم ملؤها اثم وبهتان
لا خير في عيشة والمصطفى هدف لاسهم الظلم ذا والله خسران
ان لم تقوموا بكف الشتم عنه فمن يقم به ولكم بهزه شان
قوموا لنصرة دين الله واعتصموا على اناس لهم الحق خذلان

ودخلت السنة ١٢٢٨هـ/١٨١٣م. فقيض للسلطان محمود الثاني ان يرسل الى حلب حاكماً محمد جلال الدين ابن چوچان. وكان هذا مراوغاً لا يخاف الله ولا الناس وكان قد علم بما دبّره عزيز مصر محمد علي في نكبة المماليك

سنة ١٨١٠ فحذا حذوه ودخل حلب واستقر في جوار تكيّة الشيخ ابي بكر وتظاهر بعاطفة التديّن . ودعا الانكشارية الى وليمة فاتوه غير مبالين بما يضمره لهم صاحب الوليمة فلما دخلوا الدار اغلقت عليهم الابواب وقطعت رؤوسهم فنالوا بذلك الجزاء على فظائعهم وما ظالم الا سيلى باظلم . ولم يكن اهل الذمة من المسيحيين ليخلوا من براثن الاسد فحول الباشا الانظار اليهم عن القتلى وامر بان يعتموا بعمائم زرق ويلبسوا البابوج الاحمر ليفرق بين زيّهم وزي المسلمين وذلك التعصب لارجاع اوامر الخليفة المتوكل المحقرة اهل الذمة كان حيلة يحتال بها الباشا ليدني فتكه وقساوته في سفك دماء المسلمين .

وطالما الف المسيحيون في ايام الشدة والضيق عند وقوع ازمة سياسية او اجتماعية ان يروا لهم نصيرًا بين اعيان المسلمين لأن رابطة الجيرة والاصل اقوى من ان تقطعها صوارم الايام . وكان شيخنا الرفاعي قد نشأ في القرب من حارة الاكراد وهي بمعظمها مسيحية . فكان له الاثر الطيب في التقريب بين الطائفتين .

رفاعي فخلوتي شاذلي قادري نقشبندي

لماذا هذه الالقاب ؟ لم احصّل عليها كلّها الا خلسةً في مراجعة مكتبة توفيق افندي الرفاعي ، إمام العثمانية في حلب . وذلك في مطالعة مخطوطة كتاب الفصول الوفية في السادة الصوفية ، ولم اتمكن من مراجعته على مهلي .

هي الطرق الصوفية الخمس التي انتمى اليها محمد وفاء . فالرفاعية منها ذكرنا اصلها عند ذكر اسرة الرفاعي . اما الخلوتية فهي فرع من السهروردية البغدادية . والشاذلية هي طريقة علي الشاذلي التونسي . والقادرية تنتسب الى عبد القادر الجيلاني مدير المدرسة الحنبلية وشيخ الرباط في بغداد . أما النقشبندية فمؤسسها بهاء الدين النقشبندي في الهند . وهذه الطرق أشبه بالاخويات عند المسيحيين . وكما ان الرجل الواحد يمكنه ان ينتمي الى مجتمعات مختلفة ويدخل في حكم نظاماتها ان لم تكن متناقضة ، فكذلك دخل محمد ابو الوفاء الرفاعي في الطرق المذكورة وكلها في اساسها تبتغي التصوف او الانقطاع الى عبادة الله انقطاعاً ممتازًا عن عبادة العامة وان تكن تختلف بعضها عن بعض باختلاف

اصلها واصل مؤسسيها ومراكزها واساليب الصلوات والممارسات فيها والاغراض التي تتغرضها والوسائل التي تستعملها في سبيلها ومنها السحر والرقى .

ليس المقام لتعداد التكايا في حلب وقد اتينا في نشر المنظومة وشرحها على ما يغنينا عن ذلك ، لكننا نرغب في معرفة شخصية محمد وفاء الصوفية وقد تأثرت من العلل العامة التي ساعدت على نشر التصوف بين المسلمين واتصفت بصفات كل من الطرق المذكورة .

ترجم الشيخ وفاء لنفسه فذكر بين من تعلم عليهم الطرق اسماعيل الكيالي صاحب الزاوية ، والبركة التي يقصدها الناس للاستشفاء في جوار الجامع الكبير ؛ والشيخ مصطفى الكوراني الشاذلي مدرس المدرسة العثمانية ؛ فلبس الخرقة ، وأكل اللقمة ، وجاور المقامات في المساجد ولم يحل كونه متزوجاً ان عكف من حين الى حين الى الخلوة طبقاً للاساليب الصوفية . ومن المعلوم ان المريدين والمشايخ الصوفيين ينصرفون مدة الى عباداتهم . ثم يرجعون الى حياتهم المعتادة في دورهم فيسعون في كسب الرزق لعيالهم . فعمل محمد وفاء لدينه ودنياه وبالغ في طرق التصوف فلم يكتف بواحدة منها ، واتخذها وسيلة للعمل في سبيل دنياه فنجح النجاح الباهر .

علينا ان نتبع خطواته في هذه الناحية الخاصة من حياته فنراه في القسطنطينية يتقرب الى السلطان ويلفت نظره وينال من ثم اعتبار رجالات الدولة واركانها ، ويعود الى حلب مؤيداً بالانعامات الشاهانية ، فيجلس على سجادة المشيخة الرفاعية ويلجأ الباشاوات الى الاتمام به رشيداً ونصيحاً . وان تحدث الحملة المصرية ويرحل الى العراق كالمنفي ، فيعود منها مزداناً بآثار الصالحين الصوفيين المتبركين من زيارة قبر عبد القادر الجيلاني ، فيستحق لذويه المكانة العالية ويرى ابنه بهاء الدين مفتياً على الديار الحلبية ولسان حاله يقول :

ما احسن الدين والدنيا اذا اجتمعا

في دار السعادة

بين الاوراق القديمة التي اطلعني عليها في داره السيد عبد اللطيف الرفاعي خطابٌ مؤرّخ في سنة ١٢١٥ ه. (١٨٠٠ م) موضوعه حثّ المسلمين على الجهاد في سبيل خلع نير بونابرت عن مصر. ولا ادري هل الخطاب من قلم ابي الوفاء الرفاعي. لكن حفظه في بيته دليل على اهتمام الرفاعي بمصالح السلطان ومناصرته. هذا ومن المعروف ان الاشراف الحلبيين اشتركوا في الحملة على مصر آنذاك، وان حلبياً كان قاتل كليبر القائد الشهير الذي كان اقامه بونابرت حاكماً على القطر المصري، وان الحلبيين، كما رويتا سابقاً، عادوا ظافرين من حملتهم. ولرجال الدين مكانتهم وتأثيرهم في نجاح الحملة، وكان الرفاعي فيها قلباً واحداً معهم. فظل يلتمس الفرصة لاستغلال نتائجها لبيته ويترقب الوقت الموافق للسفر الى الاستانة سعياً في تحصيل الحماية التي يجدها في العاصمة طلاب الوظائف اذا ما وفقوا الى الاتصال باولياء الامر، وله في موالاته السلطان وفي الدعاية الى الجهاد في سبيله ما ينمي في قلبه الامل بالمعالي.

وفي السنة ١٢١٩ ه. (١٨٠٤ م) توفي والده الشيخ محمد. فتصور الابن البار قائماً بواجب ابيه المرتحل، ثم منصرفاً الى تدبير شؤونه العائلية وليس بعيداً عن الفكر امكان وقوع الخلاف على الزعامة الرفاعية بعد موت ابيه وقد كان مستحكماً امره حتى في ايام حياته (راجع الطباخ ٧: ١٦٣) فصمم ابو الوفاء النية على بتّ الخلاف بالالتجاء الى الباب العالي. وبالرغم عما نعرفه من ثروة عائلته قد يكون وقع في ازمة مالية احوجته الظروف الى فكها بالسفر. تلك الازمة مع الخلاف الذي حصل بينه وبين خصومه منوّه عنها في النشيد الذي الفه، وهو متوجه الى استنبول، ويقال انه كتبه على ورقة ورماه في البحر طلباً توسم منه خيراً، فنفت فيه نفسه بالمحزون ولعله بالحزن اشار الى وفاة ابيه. ثم شكا الظلم وطلب النجاة والنصر على خصمه. واليك الشعر ببعض ادواره، وهو مشهور الى يومنا يُتلى في حلقات الذكر وقد سمعتُ في ضبطه عن لحنه الاصلي بالعلامات الموسيقية الغريغورية لانها اصلح من العلامات الموسيقية القياسية

ملحق للعدد الثاني (نيسان حزيران) ١٩٤١

صفحة ١٧٧

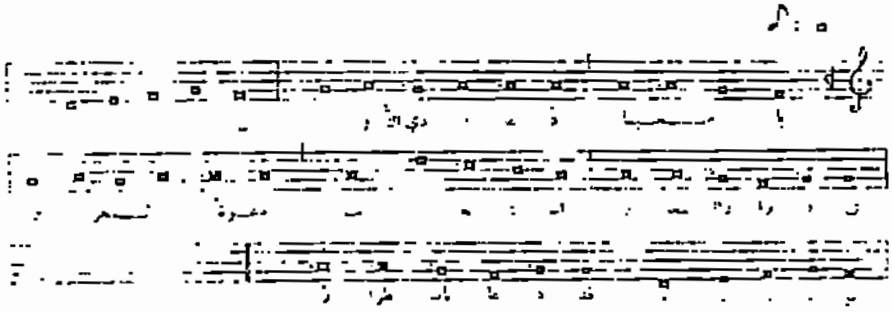

لحن نشيد ابي الوفاء الذي يتلى في حلقات الذكر في حلب الى اليوم.

اضبط اللحن العربي ذي الموجات الشبيهة بموجات الالحان الغريغورية .

يا مجيباً دعاء ذي النون في قرار البحار
استجب دعوة المحزون قد دعا باضطرار

دور يا الهي طالما ادعو موقنا بالمجاه
وتعالي وقصتي رفع الك يا سيّداه
انت منك العطاء والمنّ انت انت الاله
لك امر بالكاف والنون ولك الاقتدار
انت من ظلمتي تنجيني فالبدار البدار

دور ملجمُ البحر منك بالقدره أنت نعم العتاد
الجم الضد واكفني شرّه واقض لي بالمراد
ربِّ واجعل هلاكه عبره لجميع العباد
وأذقه العذاب بالهون وارمه بالدمار
ربِّ باغٍ في الناس مفتون في خراب الديار

دور ربِّ بدل عسري بتيسير واتني القبول
بجزيل من حسن ميسور ما اليه وصول
ربِّ وافتح ابواب تدبيري واقضر لي بالدخول
وعلى ما اروم كن عوني واكفني بالوقار
بناتي اقرّ لي عيني انت بالعبد بارّ

والنشيد في سبعة عشر دوراً اكتفينا منها بما رواه الطباخ .

ولم تكن عاصمة بني عثمان، على ما فيها من الآثار الاسلامية الرائعة ومن المساجد الفخمة، قد ألفت سماع الغناء الديني والاناشيد المتقنة. وقد روى لنا بها. الدين الرفاعي في ذلك اخباراً لها محلها في مقالنا؛ دخل بتية ابيه الشيخ وفا. جامع آياصوفيا فقال[1] عنه :

« لا يوجد له نظير في سائر البلاد الاسلامية ولا يوصف ما فيه من الغرايب والعجايب . قال لي بعض المجاورين هناك ان تحت القبة مكان اثني عشر الف مصلي. ورأينا خلقاً كثيراً منهم مجتمعين على شيخ يقرأ القرآن العظيم يقال له القصيدجي ممن زعموا ان ليس عندهم من يقرأ مثله وهو لا يقاس لأدنى قارئ من ابناء العرب ومنهم من اجتمعوا على رجل سقطه[2] يقول :

١) راجع جريدة سفر الشيخ بهاء الدين المحفوظة في بيت السيد عبد اللطيف الرفاعي في حلب .
٢) سقطه لفظة تركية معناها طالب العلم .

قال رسول الله صلى الله عليه ، باعلى صوت وبالبكا والنحيب ويترك الحديث والكلام ويبتدي بنقل حكاية ثم بعد ان ينتهي يقول : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويترك ويقول : خطر لي ان اذكر لكم حكاية لطيفة ، وينقلها . ومنهم من اجتمعوا على رجل اعمى يقرأ درساً ومنهم من اجتمعوا على عبد اسود يقرأ قراءة ما انزل الله بها من سلطان . ومنهم من يصلي ومنهم من يسبّح ومنهم من يدور في ارض الجامع والخلاصة خلق لا يعلم عددهم الا الله تعالى وفيهم الاكابر والرجال .

وبناء الجامع لا يوصف الا بالنظر لانه في غاية من الظرافة والمتانة وفي جهتي القبة الشرقية والغربية صورتان زعموا انهما صورتا الملكان الكريمان [كذا] سيدنا ميكائيل وسيدنا جبرائيل عليهما الصلاة والسلام وفي نفس القبلية ايضاً من الجهة الشمالية كوبان عظيمان من الحجر المرمر الابيض ينبع الماء من داخلها وسأذكر من عجائبها ان شاء الله تعالى اذا دخلتها ثانياً »

فلو كان الناس قد اعتادوا سماع القرآن بلسان عربي لا تركي وعن قارئ تعلّم التجويد فاجاد ، لما اقبلوا ذلك الاقبال على سماع « القصيده جي والسقطه والعبد » وقد طالما عاب العرب الاشراف ذلك الخلل على الاتراك ولا عجب ان تذرّعوا عند الفرصة السانحة بحسن لفظهم واتقان تجويدهم لكي يستعطفوا الاتراك وينالوا مودتهم . وان الشيخ ابا الوفاء كان عالماً وشاعراً عربياً مجيداً ، وفضلاً عن ذلك كان مغنياً مطرباً ومنشداً آخذاً بالباب سامعيه له صوتٌ رخيم جهوري يُسمع عن بعد يثير العواطف ويستذرف العبرات . ولما كان يخطب او ينشد او يقرأ في الجامع الكبير في حلب ، كانت الناس تقف صامتة في الازقة المجاورة فتسمعه كانها مسحورة ، وها انه بلغ استنبول وعرف ان يوم الجمعة سوف يكون يوم صلاة السلطان في جامع آيا صوفيا . فالتمس الاذن بالقاء خطابه ولما جاء الخليفة العثماني واقام في الموضع المهيأ له تحرك ابو الوفاء من موضعه وصعد المنبر واندفع يخطب خطبة الدعاء فادهش الناس واخذ بمجامع قلوبهم بصوته الجهوري المطرب ولسانه العربي الفصيح . ويسأل السلطان : من يكون الخطيب ؟ واذ يعرف انه ابو الوفاء الرفاعي ، يدعوه اليه ويلقي عليه خلعة ملوكية وهي كرك المشايخ وعصا المشيخة . وظل هذا الاثر معروضاً للناظرين في بيت الرفاعي في حي البياضة في حلب ثم اندثر . ونال الرفاعي امانيه بلفت نظر امير المؤمنين اليه وصار موضوعاً لاحترام الخاصة والعامة . لقد وصف بهاء الدين في جريدة سفره الحفاوة التي تمتع بها والده بين كبار الموظفين وصغارهم من الصدر الاعظم

الى الخديجي . وربما تناول وصفه رحلة غير الرحلة التي نحن بصددها . لان ابا الوفاء سافر مرات الى استنبول لكن اثباتها في هذا الموضع مناسبٌ للمقام مبيّن حسن تصرف الرفاعي مع الناس . فيتصل بهم ويرتبط معهم بعرى الصداقة ، فيستفيد منهم ويجعلهم واسطةً بين يديه في البلوغ الى غايته وهي تحصيل البراءة في الزعامة . وسوف يُقام ابنه مقتياً في حلب ويتسع بوجاهة وعظمة تذكر الى يومنا ولن يقطف تلك الاثمار الناضجة الا بعد ان يكون قد غرس ابوه اشجارها . وهوذا الآن وقت الغرس . وان من علامات ذكاء ابي الوفاء وفطنته وفراسته ومعرفته اخلاق الرجال انه لما دخل استنبول لم يستنكف عن ان يقصد موظفاً معزولاً بل طلب توسطه عند غيره لعلمه ان المعزول عن الوظيفة ألينُ عريكةً من المتشع بها وان « الدنيا دولاب » في جميع بلاد الله وخاصةً عند الاتراك . وربَّ مملوك اصبح مالكاً فيُقبِّلُ الايادي في اليوم وتُقبَّلُ يداه في الغد . جاء في جريدة الشيخ بهاء :

« محمد حسيب باشا اوقاف وضرخانه مشيري سابقاً — لما دخلنا الى اسلامبول فحال ان سمع بنا ارسل قايقه (١ الذي يركب به بثلاث جفتايات (٢ وطلبنا اليالي (٣ فذهبنا لليالي . فحال دخولنا كان نائباً ايفظوه فخرج للتقائنا ولاقا جناب الوالد بتقبيل الايدي والاكرام التام والاعتنا الذي لا يثل وادخلنا الى دايرة المابين وصار يدور بنا اماكنه العظيمة ويرينا ما عنده من العجايب واللطايف واستقبلنا عنده الى مساء تلك الليلة فقال لي في اي مصلحة اتيتم فقلنا له في تجديد البرآءة فقال انا الان معزول ولكن وان كنت معزولاً بمسمى رسول الله انا اخدمكم هذا الخدمه وارسل طلب مفتش الاوقاف وقال له شيخنا مراده يخلف ولده في الطريق ويفرغ عليه تولية التكية فلاجل خاطري تعمل تمام الخدمه في هذه المادة ولا اريد الا البراءات تكون عندي فقال له على الراس والعين فحينئذٍ بارك لنا حسيب باشا في المخطابه والتكية وقال لا بد من نزولكم الى قلم الاوقاف ويقرر والدك لمفتش الاوقاف حتى يعطى اعلام بوجب تقريره وارسل خبر الى كتخداه محمد افندي بان يذهب معنا الى القلم فتوجهنا لقوناق الباشا وركبنا الخيول من قوناقه وخرجنا بالسلطنه والعظمه الى ان وصلنا الى قلم الاوقاف فقرر لنا بالخلافة والتوليه واعطوا الاعلام على تقريره حالاً ثم وصلتنا البراءه بعد ايام قليلة وخلاصة الكلام ان الوزير الموما اليه رجل تجمل من لطف وكمال وودّ واعتقاد نفعه الله بذلك بحرمة النبي وآله

---

١) القايق لفظة تركية اي الفلوكه او السفينة الصغيرة .
٢) الجفتايات اي المقاذف .
٣) اليالي اي المقام الصيفي .

وصحبه . باليه نعمه من الجنة سنه في بيلريكي يعرف ببالي حليل افندي ليس له مثيله في تلك البقعة . في بستانه انواع الفواكه المتنوعه المثمره والمياه العذبه والزخرف والزينه حتى ان فيه اشجار تشابه كولاه المولي واشجار تشابه شجر السرو كانهم مغصوصات بالبيكار وفيه الطرنج بانواعه والتفاح العظيم وجميع الفواكه وخلاصة الكلام عديم المثال وصاحبه مُجِلٌّ له أنعم به واكرم فرج الله كربه واصلح حاله ومآله ! »

بعد انقضاء الشهرين ، فكر ابو الوفاء بالعودة مع ابنه الى حلب ، وقد شقَّ عليهما الم البعد عن آلهما . فقطعا ورقة السفر وتجهزا لركوب السفينة ولكن أُلجئا الى البقاء في العاصمة الى ان يتيسر الرحيل في سفينة اخرى لكثرة عدد المسافرين في اليوم .

ولنا في جريدة بهاء الدين سرد الحوادث ، وهي بسيطة لا شأن لها ، لولا علاقتها بالمترجم وبعدة اسماء باشاوات وآغاوات وافندية ظهروا فيها بمنزل عن الحياة العامة كالممثلين المنتظرين دور تمثيلهم وراء ستار المسرح ، وقد يتوقعون الساعة الموافقة ليحوموا حول الباب العالي ، والسعيد منهم من يوفق الى الاتصال به مباشرةً او بالواسطة .

قال بهاء الدين ابن الشيخ وفاء :

« هنا بالخروج من اسلامبول والتوجه الى الوطن في الوافور الذي توجه منها ثاني رمضان فلم يُقدَّر لنا ذلك لحكمة باهرة . وكانت الموانع من ذلك كثيرة في صورة قالَّة من جملتها تعسر مصاحبة سليم(؟) ولزوم تركه ونزولنا ومنها كثرة الازدحام في الوافور حتى بالغ لنا بعض المشايخ ان الركاب الذين كانوا في هذه المرة الف راكب غير الاحمال والارزاق لان كان محصل قبرز متوجه اليها واحمد باشا للشام وابن غيب باشا وحرمه للشام وحجاج ومكاكره ومن جميع البلاد . فاثنى عزمنا عن التوجه بهذه النقلة وبقينا وبعد ان عدنا للمكان الذي نحن به فحصل عندنا ندم كلي على عدم التوجه والحال انه عين الخير من غير شك ولا ريب فنرجوه سبحانه وتعالى الاتمام بالخير كما احسن حالاً انه ولي الاجابة آمين .

اول يوم من توجه البابور حصل لي قيام الندم والوجد والتعب والمشقة فنزلت الى المدينة اخذت غليون سلمه وعود ورجعت الى القوناق كاني مريض من شهرين .

والم الشقة الذي لا يطاق يلازمني الى ان افطرنا تلك الليلة وصلينا التراويح وبقينا تلك الليلة في اسف عظيم وندم على عدم التوجه مع الوافور وفي اليوم الثاني والثالث والرابع ما طلعت من القوناق ويوم خامس رمضان يوم الخميس ذهبنا الى قوناق دفتر دار حلب لبيب وافطرنا هناك عند داماده [صهره] فريد افندي وابن اخته سالم افندي واعتنوا بنا غاية الاعتنا واظهروا تمام المسنونية واللطف وصلينا التراويح عندهم . . . وعدنا الى السلطان احمد ومعنا

رضوان آغا اللبق فاخذنا من هناك دائرة اركبناها لجناب الوالد وارسلناه الفوناق وبقينا هناك ورأينا الماهية في سلطان احمد كانت تلك الليلة مكتوبة الشكر لله وسرنا من هناك ومررنا على قبر السلطان محمود فبعد ان قطعناه رأينا عشريانتنا الحلبية شريف اغا البابلي وباكير آغا جمالي وعبد الفتاح السمّان قاعدين في القهوة فقصدنا معهم الى قرب الارسنة ومن هناك سرنا سوية الى السلطان ابا يزيد وجلسنا في قهوة ايضاً حصة ثم توجهنا الى دار السيد محمد ديب الشامي وكان عنده تلك الليلة ذكر فحضرناه معهم الى قرب الستة وبعد ان شربنا قهوة توجهنا الى الفوناق فرأينا جناب الوالد ينتظرنا فجلسنا معه الى ان تسحرنا واردنا النوم فما كنا نقدر عليه وذلك اليوم الذي هو صباح تلك الليلة جناب الوالد ما نام الا قليلاً وتلك الليلة جاء عزت باشا فريق بغداد وفطر معنا في فوناق الحاج باكير آغا وصلينا التراويح وجاء لعندنا السيد عبد القادر واخيه السيد طاهر وعبد اللطيف واستقبلنا معهم الى قرب الستة وبعد ان ذهبوا قعدنا مع رضوان آغا والشيخ احمد سامحنا الله بمنه وكرمه انه ارحم الراحمين.

يوم السبت سابع رمضان المبارك زعم بعض الجهلة ان الله سبحانه وتعالى لا بد ان يُدخل النار لهؤلاء الخلق الموجودين لسوء أفعالهم وخبث احوالهم. فقلت له الانسان لا يعرف الا حقيقة حاله فقط وليس له علم باحوال الناس فاذا قلتَ عن الناس انهم افعالهم سيئة فيكون هذا مرآتك لان المؤمن مرآة اخيه. فصار يجيب باجوبة تنفر طباع البشر. لعدم اكتراثي بما اجاب ما حفظت له ولا جواب وعلمت ان جوابه السكوت لانه رجل محاجج مع انه غير عالم بما فرض الله عليه حق العلم ولا بما يجب لله وما يجوز وما يستحيل. ولا يمثل ذلك للانبياء عليهم السلام ولكن سبحان الحكيم الذي لا اله الا هو جل جلاله لا يسأل عما يفعل.

يومها شرف جناب الوالد لعند محمد باشا الكلبي يسّر الله امره وذهب معه رضوان اغا اللبق والحاج باكير اغا ارسل طلبه القبوكتخدا والي بغداد حفظه الله واخبره انه طالبين المذكور في الباب وذلك اليوم جناب الوالد عدل عن الرواح لعند محمد باشا وراح لعند عصمة بك زاده عارف بيك افندي وبات عنده تلك الليلة فداراه للغاية ثم الغفير بقيت في الفوناق وكان السمّان التاجر الشامي اخو مصطفى ثم في اليوم الثاني خرجت الساعة الثامنة من النهار الى آق سراي وركبت الى اما يزيد من هناك مشيت الى تحت القلعة فواجهت جناب الوالد عند السيد عبد القادر وعزمت علي ان لا اعود للافطار تلك الليلة للفوناق فدعاني طاهر آغا المؤذن الى بيته للافطار وذهبت تلك الليلة وصلينا التراويح عنده وبعد الصلاة خرجنا الى القهوة التي بالقرب من بيته ورأينا هناك عبد اللطيف وقعدنا حصة ثم عدنا الى الفوناق من طريق آق سراي وفي الليلة الثانية افطرنا في الفوناق والتي بعدها دعانا عبد القادر آغا المؤذن وافطرنا عنده واستقبلنا بعد الصلاة ثم عدنا الى الفوناق والتي بعدها في الفوناق والتي بعدها عند طاهر آغا ايضاً الصدر الاعظم الحاج عبد الرؤف باشا اجتمعنا به مرات عديدة وفي كل مرة نرى زيادة في التلطيف والمحبة ثم انه عمل تمام الاهتمام في مصلحتنا ادام الله بقاه والمنّة لله ولما اردنا تغيير ورقة الوافور ارسلناها له مع صايب افندي فاخذها بعد ما كان عمل فرمان على غيرها وقال لصايب افندي ان هذا الرجل لي معه تمام الحقوق والمودة وهو ممن يمتنع لانه عديم المثال

ولكن انا نسب تقادم العهد ما عرفته من اولى الشيء تمام المعرفة ولا عاملته بما يليق في حقه مع انه حفظه [الله] كان يقوم ويلاقي الوالد في نفس المسند والمنة فه في كل حال »

قدوة المشايخ والعلماء

في السنة ١٢٣٧ هـ. (١٨٢١ م) حدثت الزلزلة الشهيرة في حلب وقد تركت اثرها ليس في ذاكرة اجدادنا فقط ولكن في بنايات البلد ايضاً لان حي التلل اخذ ينشأ على ذلك العهد وصار يجرّ معه السكان من داخل البلدة القديمة الى الاحياء الجديدة الغربية . وتشققت جدران كثيرة بالهزة العنيفة في داخل حلب واصبحت بيوت عديدة غير صالحة للسكنى وكذلك قل عن المعاهد وخاصة الكبيرة منها كالجوامع والكنائس. ولا ادري في اي حالة كانت زاوية الترابي وهي زاوية الشيخ وفاء ، بعد الزلزلة. ولكن من الاكيد انه في السنة ١٢٤٢ هـ (١٨٢٦ م) زار المكان علي رضا باشا وعهد الى الشيخ محمد وفاء الرفاعي بامر تعميرها. وصارت الفرصة لرابطة قوية بين الشيخ وفاء وبين الباشا ولما تحول هذا الى بغداد ارسل واستدعى اليها صديقه الشيخ محمد وفاء فسافر الرفاعي مع ابنه بهاء الدين الى دار السلام في السنة ١٢٥٣ هـ. (١٨٣٧ م) وكان آنئذٍ ابراهيم باشا حاكماً عسكرياً في حلب من طرف ابيه محمد علي ، عزيز مصر ، وكانت رحى الحرب تدور بين المصريين والعثمانيين وكان للرفاعيين ولاؤهم المعروف نحو الدولة والخليفة فلا يبعد ان يكون محمد وفاء قد اغتنم فرصةً من دعوة والي بغداد لكي لا يخطر الى الاتصال بابرهيم باشا عدو السلطان ، فضلاً عما كان هناك من داعٍ دبني يجذبه الى زيارة قبر الشيخ عبد القادر الجيلاني . فمضى الى بغداد والتقى بعلمائها وسمع منهم الاحاديث وحدثهم عما قرأه وتعلمه. « ونال تمام الاكرام والاحترام والاقبال » وعاد بالسلام الى حلب . وكان قد زار دار السعادة في السنة ١٢٢٠ هـ. (١٨٠٥ م) في ايام مشاغب الانكشارية ومخاصماتهم في الشهباء. فعاد وزارها مرة ثانية بعد عودته من بغداد الى حلب ولا شك انه نال من الخليفة وكبار الدولة احتراماً بليغاً ، ورجال الدين لهم آنذاك مكانتهم الرفيعة عند سلطان المسلمين وهم قدوة الشعب في تأييد السلطة . والشيخ محمد وفاء

كان قد دخل في السنة الرابعة والسبعين من عمره ، وعليه شارات الطرق الصوفية ، وهو من كبار مشايخ حلب والموكل بحراسة الشعرة النبوية . وكانوا كما قلنا سابقاً يقصدون الى القسطنطينية لتحصيل وظيفة او استزادة نعمة او تسجيل حق يوقف او طلب المصادقة على شهادة ، وللرفاعيين شهادات شاهانية تدلّ على انهم ينتسبون الى البيت النبوي عن الرفاعيين الاصليين . ولعل محمد وفاء كان من العاملين في سبيل اثبات تلك الشهادة من جانب الباب العالي . ومن المعلوم انها كانت تعود عليهم بحقوق المناظرة على اوقاف التكايا المعهود بامرها اليهم . هذا يبدو للنظر على التخمين ولم يتجاوز عندي حدّ الحدس ولم استطع سبيلاً الى التفتيش عن صحته في الوثائق . على ان الامر الراهن هو ان ابن الشيخ محمد وفاء سوف يشغل وظيفة رفيعة في حلب على ايام ثريا باشا[1] فيرونه مفتياً يدور مع الوالي في مجاعة السنة ١٢٨١هـ . (١٨٦٤م) يدعو الناس الى التهاود في وضع الاسعار ، ويقتصّ من اللحامين والخبازين المبالغين في المساومة على الحاجيات .

ودخلت السنة ١٢٦٣هـ . (١٨٤٦م) فحدث في حلب وباء عظيم وكثرت الوفيات حتى ضاق النهار على الجنائزية ، وصاروا يشتغلون في الليل والتزم الناس البيوت خوفاً من ان يدرك احدهم الاجل وهو خارج عن بيته . وكان الشيخ ابو الوفاء قد احس « بالحمى الباردة » كما ذكر ذلك في بدء المنظومة وهذه هي في عرفهم الفالج وعلى اثرها ألّف منظومته عن اولياء حلب ملتجئاً اليهم وطالباً شفاعتهم لينال الشفاء . ولا ادري هل ناله ؟ او هل تحقق فيه المثل : فالج لا تعالج ؟ فيكون قد ظل نحو عشر سنوات ملازماً غرفته لا يزور مقامات الاولياء الا بالفكر فيما ينظم المنظومة . واننا نتصوره وقد دخل الخامسة والثمانين من عمره في ربيع الاول من السنة ١٢٦٤ متواضعاً متذللاً لربه وقد نعت ذاته بالعبد الذليل الكسل المذنب العاصي الخؤوف الوجل فيلازم الصلاة والقراءة والعبادة ويردد ذكر الموت طبقاً لقول النبي : اكثروا من ذكر هادم اللذات .

---

١) راجع كتابنا وثائق تاريخية عن حلب ١ : ١٧٣

ويستعد لملاقاة ربه. ثم حان وقت الفراق الاخير والسفرة التي لا عودة بعدها فارتحل الشيخ وفاء الرفاعي من دار الفناء الى دار البقاء .

في تربة الصالحين، عند قبره، شرقي مقام ابراهيم وقفت قبيل غياب الشمس متأملاً ، وجال بي رائد الخيال في ترب حلب وما اكثرها ! فرأيت في خارجها وداخلها عند العزيزية والجميلية والسليمانية والوكيلية شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً قبور اموات لا يحصى عددهم ، بينها قبر الصبي والصبية والطفل والشيخ والاب والام فقلت في نفسي: ما احرانا ابناء بلدة واحدة من ضمت عظام آلنا ارض واحدة ان نعيش قلباً واحداً في ظل المحبة والاتفاق والسلام .

وخفضت نظري فوقع على ضريح الشيخ وفاء فقرأت ما كُتب عليه نقشاً في الحجر :

« اذا ما تولى الله نفس وليه تهون عليه سكرة الموت بالحق
وما هي الا دعوة واجابة ويخلص من رق الكثافة بالعتق »

المراجع

راغب الطباخ : اعلام النبلاء بتاريخ حلب الشهباء ، ٧ اجزاء – طبع في المطبعة العلمية بحلب ١٩٢٣ – ١٩٢٦

كامل الغزي : نهر الذهب في تاريخ حلب ، ٣ اجزاء – المطبعة الماردونية حلب – الآثار الكتابية العربية على الابنية الحلبية ، كتاب خط ، المكتبة الشرقية ، بيروت رقم 143

Canaan Taufik : *Mohammedan Saints and Sanctuaries in Palestine*, Luzac and Co., London. 1927

Encyclopédie de l'Islam.

الإنشاد

او

الفنّ الاصيل في الأدب الجاهليّ

بقلم فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربيّة في جامعة القديس يوسف

الاس النفساني

ب — الوعاء الشفهي

٣ – محاولات في تحديد الإنشاد *

ادركنا ، في البحث السابق[1] ، ماهية الانشاء اليدوي ، واهمية اليد في توليد الفكرة مقترنةً بالصورة ، حتى صحّ القول: « يفكّر الانسان لانّ له يدًا ». ثم انتقلنا الى كلمة في اثر الحركة في التعبير الشفهي ، ومن ثمّ في الكتابة ، وفي تكوين مفرداتِ اللغة ، مهّدنا بها لما سوف نحاوله من تحديد الإنشاد .

ولا بدّ ، بادئ بدء ، من لمحة نقابل فيها بين الفرد الناشئ في ترعرع قواه النفسية ، والشعب الناشئ في اول يقظته الى الفنّ الشفهي .

مما لا مشاحّة فيه ان الغلام الناشئ يكون اقرب الى تذوّق الحكايات الخيالية العاطفية ، المسرودة باسلوب يستند الى النغم الموسيقي ، منه الى تفهّم القياسات المنطقية والاستنتاجات الرياضية . ولا ينحصر سرّ ذلك في انّ الحكايات اسهل من مولّدات المنطق . لانه قد يكون في تشعّب الاساطير ، وتعدّد الاشخاص ،

---

*) مادة المحاضرتين الثانية والثالثة من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » للسنة ١٩٦٠–١٩٦١ في فرع « الادب العربي » .

١) راجع « مشرق » هذه السنة ص ٧٥–٨٨

وتداخل الحوادث ما يفوق صعوبةً عقليةً الكثيرَ من قياسات الرياضيات او احكام العلوم . فالسرّ اذًا يتجاوز مسألة السهولة والصعوبة ، راقيًا الى ميل فطري في الانسان يدفع الناشئ — مع اخذه بالسهولة — الى التعلق بمولدات الحسّ والخيال والموسيقى ، منصرفًا ما استطاع عن شغل فكره بمظاهر التجريد العقلي .

هكذا نرى الفرد الناشئ ؛ وهكذا نرى الشعب الجاهلي في اول اخذه بالفنّ التعبيري . هو يميل الى كلّ ما يؤثر فيه ، فيمكنه حفظه عن طريق السماع ، ولا طريق سواه اذ ذاك لحفظ الآثار الادبية . وما كان لأثر ادبي ان يُحفظ ، بل ان يولد ، في ذاك العصر الشفهي ، الّا اذا ارتكز على العناصر الحسيّة والخياليّة والموسيقيّة . فادّى الفكرة البسيطة بصورة مألوفة ، ونغم عادي ، واسلوب واضح ، بيّن التقاسيم ، وافر التأثير ، مستند الى اسهل الطرق البيانية الفطرية عاونًا بالآذان ، واستقرارًا في النفوس ، كالمراجعات ، والترديدات ، والمقابلات ، والتضادّ ، والطباق ، ولا سيما السجع .

فاذا قام الخطيب — وكل مؤلف خطيب اذ ذاك — بهذا النوع من الانشاء الشفهي ، او التعبير الفني ، معتمدًا على ذاكرته اولًا ، ثم على التأثير في الحاضرين فالعمل في ذاكراتهم ، قلنا انه « منشد » وان فنه « انشاد » .

وقبل ان نتبسّط في الدلالة على هذه العناصر « الإنشادية » ، وموافقتها لروح العصر الجاهلي وحالته من الادب الشفهي ، ينبغي لنا ان نأخذ بمقابلة اخرى قد تكون مفيدة في موضوعنا . هي المقابلة بين « منشدي » الجاهلية و« قوّالي » عصرنا .

« المنشد » الجاهلي ، و« القوّال » او « الزجّال » العصري ، كلاهما يمثل الادب الشفهي في محيطه .

ونحن نقصد « قوّالينا » ذوي الثقافة الشفهية الخالصة ، لا اولئك الذين اثّرت في بديهيّتهم الفطرية آثارُ الثقافة الكتابيّة ، فاصبحوا يتعطربون بين بيئتين عقليّتين ، يفتّشون عن الكلمات الفصيحة ، الغريبة في نظر العامّة ، ويتعمّدونها ،

متوهمين انهم بواسطتها يزخرفون اقاويلهم فيرتفعون الى المستوى الراقي. وهم انما يخرجون عن سَنَنهم الطبيعي، فيفقدون بهجة الفطرة، وسلامة الذوق، وينزعون بحمل الزخرف الصناعي، واللفظ الغريب المجلوب.

ليس الفنّان الحقيقي ذاك الذي يبتكر الكلمات، فيستعمل ما ليس معروفاً منها. بل هو ذاك الذي يبتكر التعابير، فيولّد بالبسائط المعروفة مركّبات جديدة.

ان الكلمات كالحجارة، كالأصوات، كالألوان، هي ملك الجميع. لا احتكار فيها ولا ابتذال. يعمد اليها الصناعي المتكلّف فتنشمس له، وتتفلّت من امامه، فلا ينال الا مركّبات جامدة لا حياة فيها ولا بهجة، وينام الفنّان الموهوب «مل» جفونه عن شواردها»، فتأتيه صاغرة سلسة القياد. واذا بالحجارة، والاصوات، والألوان، والكلمات، التي ألفها الجميع عاديّةً بانفرادها واستقلالها، تتكتّل في تراكيب جديدة، وتتّحد في مجموعات مبتكرة، فتسمو بتلك المواد المبتذلة الى روائع النحت، والموسيقى، والتصوير، والشعر.

فالفنّ اذًا لا يقوم باختراع الغريب من الألفاظ، بل بالتوفّق الى حسن التأليف بين هذه الألفاظ. ليس معجز القرآن — ذاك المعجز الديني في نظر المسلمين، والمعجز الادبي الفني في نظر سائر المتكلّمين بالعربية — بانه اخترع كلمات جديدة — ولو فعل لما فهمه العرب! — بل بانه أدّى للعرب طرقاً فنيّة في الانشاء، بانياً على كلماتهم نفسها.

أوَ لم يحسّ العرب بهذا السرّ العميق في البلاغة السهلة الألفاظ، المتنعة التركيب، عندما قالوا، على لسان النقّاد: «ركن البلاغة اللفظ، وهو ثلاثة انواع: نوع لا تفهمه العامة ولا تتكلم به، ونوع تفهمه العامة وتتكلّم به، ونوع تفهمه العامة ولا تتكلّم به، وهو أحمدها.»

أوَ ليس من هذا النوع تحديد البلاغة المنسوب الى ابن المقفّع، صاحب «السهل الممتنع»، تلك التي اذا سمعها الجاهل ظنّ انه يحسن مثلها. يسمع فيسهل عليه فهم الألفاظ، ويعجزه التركيب، وهو سرّ الفنّ العميق. ولقد اصاب بسكال في قوله: «اللفظة ككرة الصولجان. هي لجميع اللاعبين. انما الفوز

يناله ذاك الذي يضعها في المحلّ المقصود . »

III

ولنعد الى « قوّالنا » العامي الشفهي الثقافة ، الذي كثيرًا ما يكون أمّيًا ؛ والى « منشدنا » الجاهلي الأمّي ، لا خلاف ، الشفهي الثقافة كذلك . ولنقابل بينهما يتضح لنا الكثير من عناصر الإنشاد .

لنتصوّر هذا « القوّال » في حلقة من مريديه وسامعيه ، تتحلّق على بعض سطوح القرية ، او في بعض قهاوي المدن ، او في ساحة الدير او المزار ، زمنَ العيد او الموسم . يبدأ بالترنيم والتنغيم ، حتى اذا حمي الوطيس اخذ « بالقول » ، وهو « الانشاد » اي الكلام الموزون المغنّى ، يلقيه مقاطع منغّمة ، ترفده جوقته احيانًا ، وحينًا لا يترفد الّا صوته واكفّ الحاضرين يوقّعون النغم الاساسي . يتكل على ذاكرته وبديهته ، وكثيرًا ما ينتقل من الإلقاء الى الإرتجال ، ولا سيما اذا كان امامه مناظر . فيخوض « القوّالان » في مساجلة تشبع حلقتها ، وتتناول شظاياها بعض الحاضرين من « القوّالين » وغيرهم ، حتى تبلغ من الفخر والحماسة ما يشاء المتساجلون ، بل فوق ما يشاؤون .

ولننتقل الآن ، متجرّدين من اوهام الثقافة الكتابية ، الى العصر الجاهلي . « قوّال » ذاك العصر او « منشده » — وسواء أسمّيناه « شاعرًا » ام « خطيبًا » ام « كاهنًا » — يتوسّط حلقة من السامعين والمريدين اشبه بحلقة « قوّالنا » العصري . فيحتلّ مركز الموسم ، او السوق ، قريبًا من البئر ، مستظلًّا بتلك الشجرة التي قد تكون الوحيدة في الساحة ؛ او يعلو مرتفعًا من الرمل ، او نصبًا قريبًا من فناء الكعبة ؛ او يكتفي بركوب راحلته منبرًا فخمًا ؛ فيلقي « قوله » ، شعرًا كان او عظةً او خطابًا . وهو ، في كلّ ذلك ، لا يعدو ما يلجأ اليه « قوّالنا » من الأخذ بالقاء المحفوظ اولًا حتى اذا احتدم الموقف ، دُفع الى الارتجال فالمساجلة — وما كان اكثرها في ذاك العصر ! — متكلًا على ذاكرته اولًا ، ثم على ذاكرة الحاضرين .

وكما نرى « قوّالنا » تحتّمه جوقته ، وتردّد بعض اقواله ، مستعيدةً « لازمات » المقاطع ، وانغام الأوزان ، كذلك كان « المنشد » الجاهلي في قبيلته ،

يتحسّس له رجالها فيؤيّدونه في المفاخرات والمنافرات ، وينقل رواتها « شعره » وانا شيده من حيّ الى حيّ ، ومن منزل الى منزل

نشهد القوّال او المنشد في حشد من الخلق مجتمعين لغاية دينية او تجارية — وكثيرًا ما تجتمع الغايتان ، كما في اعياد المزارات والمواسم — وقد جاء كلٌّ ببضاعته يبيع ويشتري . فتُقام السوق ، ولنسمّها عكاظ اوذا المجاز او بعض مواسمنا العصرية . يقف « المنشد » فيها مستفيدًا من هذا الاجتماع الطبيعي ، فينشر مأثرة ، او يفاخر بمكرمة ، او يقرع الاسماع بعظة ، او يدعو الى معتقد جديد . هو الاعشى ينشد بذكر المحلّق ، وهو النابغة يعزّز حلف بني أسد ، وهو قسّ بن ساعدة يعظ من على جمله في عكاظ ، وهو النبي يتلو الآيات المحكمات .

يبدأ « المنشد » كلامه في صخب من القوم . فلا يكاد يسمعه احد . فيعيد مطلع خطبته ، ثم يتوقّف قليلًا ، منتظرًا ، مستفهمًا . فيترك هذا مناقشة جاره ، ويزمّ ذاك عدل بضاعته ، ويجذب الثالث ردن رفيقه جهةَ الخطيب . فيعيد هذا المطلعَ لافتًا نظر السامعين ، مستأثرًا بانتباههم ، حتى اذا انس منهم الاصغاء التامّ ، اندفع فامرّ كلامه مستندًا الى النغم الإيقاعي . وهو في ذلك لا يعدو نوعًا من اساليب الخطابة لا يزال يلجأ اليه خطباؤنا العصريون ، على رغم تبحّرهم في الأدب الكتابي ، اذا ما خطبوا في الجماهير المتألّبة ، الا وهو التوقّف .

أعطهم ، يا ربّ . ماذا تُعطي ؟ أعطهم رَحِماً مثكلًا ، وأثداء جافّة .

هو توقّف هوشع النبي في الدعاء على بني أفرائيم[1] .

وأبلغ منه في نوع التوقف ما ورد في القرآن عن القارعة[2] :

القارعه !

ما القارعه ؟ وما ادراك ما القارعه ؟

يومَ يكون الناسُ كالفراشِ المبثوث ، وتكون الجبالُ كالعهنِ المنفوش ،

---

١) نبوءة هوشع ٩ : ١٤

٢) القرآن ١٠١ [القارعة]

وأما من ثقلت موازينه فهو في عيشة راضيه :
واما من خفّت موازينه فأمّه هاويه .
وما ادراك ماهيه ؟ نارٌ حاميه !

وكذلك القول عن سورة الحاقّة[1] :

الحاقّه :
ما الحاقه ؟ وما ادراك ما الحاقّه ؟
كذّبت ثمودُ وعادٌ بالقارعه : فأمّا ثمودُ فأهلكوا بالطاغيه
واما عادٌ فأهلكوا بريح صرصر عاتيه . . .

وفي سورة الطارق[2] :

والسّماء والطارق .
وما ادراك ما الطارق ؟
النجم الثاقب .

ومما يلحق بالتوقف انواع الاستفهام ، كما في سورة الغاشية[3] :

هل اتاك حديثُ الغاشيه ؟
وجوه يومئذٍ خاشعه ،
عاملةٌ ناصبه ،
تَصلى نارًا حاميه ،
تسقى من عين آنيه !

وقد رتّبنا المقاطع على غير المألوف من تسلسل الاسطر في الانشاء المنثور ، لندلّ على مواقع النغم ، ومحطّات الايقاع الانشادي ، شأننا في ما سيأتي من الامثلة الانشادية .

ولا يكتفي المنشد بالتوقّف اسلوباً شفهيًا يجذب به انتباه سامعيه . بل كثيرًا ما تجاوزت غايته جذب الانتباه الى الرغبة في اقرار تعاليمه والعمل على

١) القرآن ٦٩ [الحاقّة] ١-٦
٢) القرآن ٨٦ [الطارق] ١-٣
٣) القرآن ٨٨ [الغاشية] ١-٥

ان يحفظها هؤلاء السامعون . فلزمه ان يبني على ما سبق اليه فهمهم ، فينسخه ويقيم تعاليمه الجديدة بازائه . واذا بنا في التضادّ والمقابلة وما اليهما من اساليب لا يزال يأخذ بها البيانيون. وفي الانجيل امثلة عديدة على هذا النوع قد لا تفقد الكثير من صفتها الانشادية الشفهية اذا ما اوردناها بالترجمة العربية . منها تلك المواعظ والارشادات الجارية على هذا الاسلوب :

لقد قيل لكم . . .
او قيل للأوّلين . . .
او سمعتم انه قيل . . .
/ وانا اقول لكم . . .

ولا سيما في الوصايا التي كانت تفاجئ السامعين بجدّتها ، بل بغرابتها نسبةً لما ألفوه وعاشوا عليه . فكان يسوع يرمي الى اقرارها في اذهانهم بالاعتماد على المقابلة ، مقابلة بين ما يوجب على اتباعه العمل به ، وما يريد نسخه من التقليد القديم . وهي من اسهل الطرق في التعليم الشفهي ، لأن السامع ، اذا ما اقترن في حافظته التعليم الجديد بما يعاكسه من التعليم القديم ، كان عليه تذكّر الوصية الجديدة كلّما خطرت القديمة على باله :

قد سمعتم انه قيل:
العين بالعين والسنّ بالسنّ .
اما انا فاقول لكم :
لا تقاوموا الشرّير . بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر . (١

قد سمعتم انه قيل :
أحبب قريبك وأبغض عدوّك .
اما انا فأقول لكم :
احبوا اعداءكم ، واحسنوا الى من يبغضكم . (٢

قد سمعتم ايضاً انه قيل للأوّلين :
لا تحنث ، بل أوفِ للرب باقسامك
اما انا فأقول لكم :
لا تحلفوا البتّة . (٣

وقد يتناول المسيح في مواعظه مثلاً كاملاً مبنيًا على التقابل والتضادّ ، مربوطة مقاطعه بألفاظ او تعابير مهمّة يحطها محطّات انشائية ليعلق بها ذهن السامع

١) متى ٥ : ٣٨-٣٩
٢) متى ٥ : ٤٣-٤٤
٣) متى ٥ : ٣٣-٣٤

فيسهل عليه تذكر المثل بكامله. من ذلك مثل البيت المبني على الصخر والبيت المبني على الرمل ، نورده مرتباً وفقاً للمقاطع والمحطات الانشادية :

فكلّ من يسمع كلامي هذا ويعمل به	وكلّ من يسمع كلامي ولا يعمل به
يشبه رجلاً حكيماً	يشبه رجلاً جاهلاً
بنى بيته على الصخر ؛	بنى بيته على الرمل :
فنزل المطر ، وجرت الانهار ، وهبّت الرياح ، واندفعت على ذلك البيت	فنزل المطر ، وجرت الانهار ، وهبت الرياح ، وصدمت ذلك البيت
فلم يسقط .	فسقط ؛
لان اساسه كان على الصخر .	وكان سقوطه عظيماً . (١)

وكذلك القول عن مثل الجائع والعطشان والعريان ، وكلّه من نوع المقابلة :

حينئذٍ	حينئذٍ
يقول الملك	يقول ايضاً
للذين عن يمينه :	للذين عن يساره :
تعالوا ، يا مباركي ابي ،	اذهبوا عني ، يا ملاعين ،
رثوا الملك المعدّ لكم منذ انشاء العالم .	الى النار الابدية المعدّة لإبليس وملائكته .
لاني جعت فاطعمتموني ،	لاني جعت فلم تطعموني ،
وعطشت فسقيتموني ،	وعطشت فلم تسقوني ،
وكنت غريباً فآويتموني ،	وكنت غريباً فلم تؤووني ،
وعرياناً فكسوتموني ،	وعرياناً فلم تكسوني ،
ومريضاً فعدتموني ،	ومريضاً
ومحبوساً فاتيتم اليّ .	ومحبوساً فلم تزوروني .
حينئذٍ	حينئذٍ
يجيبه الصدّيقون قائلين :	يجيبونه هم ايضاً ويقولون :
يا ربّ ،	يا ربّ ،
متى رأيناك	متى رأيناك
جائعاً فاطعمناك ؟	جائعاً
او عطشان فسقيناك ؟	او عطشان
ومتى رأيناك غريباً فآويناك ؟	او غريباً

١) متى ٧ : ٢٤-٢٧

او عريانًا فكسوناك ؟ | او عريانًا
ومتى رأيناك مريضًا | او مريضًا
او محبوسًا | او محبوسًا
فاتينا اليك ؟ | ولم نخدمك ؟

فيجيب الملك ويقول لهم : | حينئذٍ يجيب ويقول لهم :
الحقّ اقول لكم | الحقّ اقول لكم
انكم كلما فعلتم ذلك باحد اخوتي هؤلاء الصغار في فعلتموه . | انكم كلّما لم تفعلوه باحد هؤلاء الصغار بي لم تفعلوه (١

الى هذا الاسلوب في التقابل والتضادّ ، الجزيل الفائدة في إفهام السامعين وحملهم على الاصغاء فالحفظ ، يجب ان نضيف طريقة من بديهيّات الانشاء الشفهي ولا سيما التعليمي منه ، وهي المراجعة او التكرير . وقد بلغ من أثرها في الادب العربي القديم أن اصبحت من محسّنات الانشاء في عهد الادب الكتابي ، فعدّها البيانيون من محاسن الصناعة البيانيّة ؛ وقسموها نوعين لفظية ومعنوية . فاللفظية هي التي يُكرّر فيها اللفظ بعينه كقولك : هَات ، هات ؛ او قُلْ ، قُلْ . والمعنوية ما تكرّر فيها المعنى بغير لفظه نحو : أطِعني ولا تعصني .

وقد يكون التكرير اضطراريًا يُدفع اليه الخطيب الشفهي ، اذا ما طالت جملته وخشي ان تضيع لحمتها على السامعين ، فيرى من الضروري ان يعيد النبرة الأولى ، او غيرها من النبرات الاساسيّة ، في الجملة الطويلة . كما ورد في القرآن :

« ثمّ إنّ ربّك للذين عملوا السوء بجهالة ، ثم تابوا من بعد ذلك واصلحوا ، إنّ ربّك من بعدها لغفورٌ رحيم . »(٢

وفيه ايضًا :

« اذ قال يوسف لابيه : يا أبتِ ، اني رأيت احد عشر كوكبًا ، والشمس ، والقمر ، رأيتهم لي ساجدين . »(٣

(١ متى ٢٥ : ٣٤-٤٥
(٢ القرآن ١٦ [النحل] ١٢٠
(٣ القرآن ١٢ [يوسف] ٤

هذا النوع الطبيعي في الادب الشفهي اصبح ، هو ايضاً ، من محسنات الانشاء الكتابي . قال ابن الاثير : « انه اذا طال الفصل من الكلام ، وكان اوله ينتقر الى تمام ، ولا يُفهم الّا به ؛ فالأولى في باب الفصاحة ان يُعاد اللفظ الأول مرةً ثانية ليكون مقارناً لتمام الفصل ، كي لا يجيء الكلام مبتوراً ؛ لا سيما في « إنّ » واخواتها . فاذا وردت « إنّ » وكان بين اسمها وخبرها فسحة طويلة من الكلام ، فاعادة « إنّ » احسن في حكم البلاغة والفصاحة . »[1]

أرَ هناك ادلّ على أصالة التكرير اللفظي في لغتنا العربية من صيغة المفعول المطلق التي تكاد تمتاز فيها على سائر الامم . موتاً تموت ! قتلته قتلاً . وكأننا كرّرنا اللفظ بالصيغة نفسها .

على ان كلا التكريرين ، اللفظي والمعنوي ، وافر مستفيض في مظاهر الإنشاد . يلجأ اليه المنشد في تقرير حالة نفسيّة يعبّر عنها بمقاطع موزونة تتطلّب محطّات متناسقة يستريح عندها ليتناول مقطعاً جديداً . فيردّد المقطع الاساسي ، منتظرًا ما سوف يفتح عليه فيكمّله على النسق الأول .

او تكون غايته استثارة حماسة القوم واندفاعهم في سبيل امر مهمّ كالقيام بغارة ، او اخذ ثار .

هو المهلهل يندب اخاه كليباً . فيكرّر مثيرات الأسف ، وكأنها لازمة الادوار المحزنة :

دعوتك ، يا كليب ، فلم تجبني ؛ وكيف يجيبني البلدُ القفارُ !
أجبني ، يا كليب ، خلاك ذمٌّ ! ضنينات النفوس لها مزارُ .
أجبني ، يا كليب ، خلاك ذمٌّ ! لقد فُجعت بفارسها نزارُ .

. . .

أتندو ، يا كليب ، معي ، اذا ما جبانُ القوم اغباه الفرارُ !
أتندو ، يا كليب ، معي ، اذا ما حلوبُ القوم يشحذها الشفارُ !(٢

ثم يذكر قتلهم بجير بن الحارث وهمّام بن مرّة وغيرهما . ولكنه لا يرى قتيلاً معادلاً لكليب في مختلف حالات الحياة البدوية :

١) ابن الاثير : المثل السائر : باب التكرير
٢) الروائع ٣ [المهلهل] ٢-٣

على ان ليس عدلًا من كليبٍ ، اذا خاف المغار من المغير .
على ان ليس عدلًا من كليبٍ ، اذا طُرد اليتيم عن الجزورِ .
على ان ليس عدلًا من كليبٍ ، اذا ما ضيم جار المستجيرِ .
على ان ليس عدلًا من كليبٍ ، اذا ضاقت رحيبات الصدورِ .(١

حتى يراجع الشطر عشر مرّات .

وكذلك موقفه كلما ذكر اخاه ، فناداه نداء اليائس :

يا خليليَّ ، ناديا لي كليبًا ، واعلما انه ملاقٍ كفاحا ؛
يا خليليَّ ، ناديا لي كليبًا ، ثم قولا له : نمت صباحا !
يا خليليَّ ، ناديا لي كليبًا ، قبل ان تبصر العيون الصباحا .(٢

حتى اذا اخذ بعض العقلاء يسعون في عقد الصلح بين بكر وتغلب ، هاجت عاطفة الاخ الموتور ، ودفعه التعطّش الى الثأر ، فالقى تلك السلسلة من المراجعات التهديديّة ليحرّض بها نفسه والقوم على متابعة الحرب حتى ابادة الاعداء :

ان تحت الاحجار حزنًا وعزمًا وقتيلًا من الاراقم كهلا .
قتلته ذُهلٌ : فلست براضٍ ؛ او تُبيدَ الحيَّيْنِ : قيسًا وذُهلًا ،
ويطير الحريق منها شرارًا ، فينال الشرار بكرًا وعجلا .
قد قتلنا به ، ولا ثأر فيه ؛ او تمسَّ السيوف شيبانَ قتلا .
ذهب الصلحُ او تردّوا كليبًا ، او تحلّوا على الحكومة حلًّا !
ذهب الصلحُ او تردّوا كليبًا ، او اذيقَ ، الغداةَ ، شيبان ثُكلا !
ذهب الصلحُ او تردّوا كليبًا ، او تنالَ العُداةُ هونًا وذلًا !
ذهب الصلح او تردّوا كليبًا ، او تذوقوا الوبالَ وِردًا وخبلا !
ذهب الصلح او تردّوا كليبًا ، او تميلوا عن الحلائل ، عُزلا ؛
او ارى القتل قد تقاضى رجالًا لم يميلوا عن السفاهة جهلا !(٣

واذا بنا في الصميم من الرثاء العربي الذي لا يكتفي بالبكاء على الميت ، بل يرمي الى التحريض على القيام بذلك الواجب المقدّس ، واجب الثأر . وليس افضل من اثارة العواطف الثأرية ، فالتحريض على غزو الواتر ، من تلك الترديدات الكئيبة فيها من الأسف على الراحل ، وفيها من تهديد القتلة ، وفيها على كل

١) الروائع ٣ [المهلهل] ٦-٧
٢) الروائع ٣ [المهلهل] ١٠
٣) الروائع ٣ [المهلهل] ٩

حال نبرة تذكي النار ، وتجدّد حماسة المنشد والسامعين. أو ليست من هذا النوع ترديدات الخنساء اللفظية والمعنوية المتكرّرة في ديوانها الضخم حتى الابتذال ؟ أو هناك من شكّ في ان غايتها لم تنحصر بالبكاء على اخويها ، بل كانت تتجاوز الى تحريض القوم على الأخذ بثأرهما ؟

وكأنّ هذه الترديدات الرثائية الثأرية تلك الأناشيد الحماسية الشفهية التي لا يزال يكرّرها ، الى يومنا ، فرسان الدروز في جبلهم ، وفرسان البدو في احيائهم ، اذا ما تنادوا الى القيام بغزوة او الى دفع غارة. فسبق فريق منهم الى ساحة الاجتماع ، واقاموا في انتظار الباقين ، يتساندون ، اذا كانوا مشاةً ، كمن يرقص « الدبكة » ، ويتظاهرون ، اذا كانوا خيّالة ؛ وكلهم ينشدون اغانيَ حماسيّة قليلة المعاني ، متكرّرة الألفاظ حتى الإملال . انما يوليها التأثر الحماسي تلك النبرات الشعرية الطاغية على الأفكار حتى لا تكاد تفهم ، توقعها الأصوات الجهورية على وقع الخطى ، او على وطء سنابك الخيل .

وهكذا القول عن « النذّابات » و« النذّابين » خاصّةً في قرانا اللبنانية .

وكم لقوّالينا من ترديدات لفظيّة يلهون بها السامعين هنيهة ، كما يلهون بها صوتهم ولسانهم ، حتى تأتيهم البديهة بالمقطع الجديد فيتمّ البيت او الفقرة من النشيد . وليس « المخمّس المردود » في اصله الطبيعي الّا من مظاهر الترديد الإنشادي ، اذ يستعين المنشد الشفهي بالمقطع الاخير من البيت السابق ، فيعيده شاحذًا قريحته ، بادئًا به مقطعاً جديدًا .

وعلى هذا ورد الكثير من « المطالع » العامية ، كمطلع الشيخ ناصيف اليازجي المشهور :

شاجتْ بدر النورْ بالجلفه ، لبّيْ لبست الجبّة الزرقا.
انت القمرْ والبدرْ ، يا غندور ؟ لكن من أينْ للبدر ها المشفه !
انت القمرْ والبدرْ ، يا غندور ، بالطالع المسعدْ وفيض النورْ !
برجكْ بقلبي لم يزل معمورْ
خيّمتْ في شرقيّهْ حتى انشغلْ قبليّهْ وانت المخبّا فيّهْ
هذا السببْ غرقانْ ها الغرقه !

هـذا العـبُ محجوبٌ عن عيني والعجبُ مـا بينك وما بيني !
بالله ، لا تنكرْ وَفا ديني !
دين المحبّة عليك تنظرْ عيوني ليك وَشْ كان بصير، بابَيْك
لَنْكْ بشرقْ صوبنا مَرْقه ؟(١

ومن هذا النوع نصيحة « ابو الاجران » افنيانوس بالزواج. قال:

شِفتْ شوفي بينْ قبلي شافها ؟ الكلّ شافوها ، وعنها ما حكوا:
فَانكانْ واحدْ يشتكي جَور الزواجْ، فالكلّ من جَور المزوبي يشتكوا.

فانكانْ واحدْ يشتكي جَور الزواج ، فالكل من جَور المزوبي في وهاجْ !
يا للعجب كيفْ الزواج ما لو رواجْ والطفالا عليه ، لو رعيوا ، بكوا !.

والطفالا عليه بكيوا ، وعا الصحيحْ وكل صاحب روح يعرفه مليحْ ،
لا تصدّق شخصْ اعزبْ مستريحْ. الله حلّلْ للزواجْ وباركوا.

الله حلّل للزواج ، قال ، وأمَرْ من غير أقاركْ فـلا تأكلْ ثمرْ.
اي غنى بشابه اولاد الصغارْ ، يا مَن جهلت الاقتران وتاركو ؟(٢

ولْيُنتبه الى ان المنشد العامي او « القوّال » قلّما يهتمّ بضبط القوافي ضبطاً كتابياً . انما يهمّه الوقع الموسيقي وحده . فاذا أسّس مقطعاً على نبرة مقتضبة في القافية كقوله « أمَرْ » و« ثَمَرْ » مثلاً ، واتته القافية الثالثة طويلة النبرة كحرف المدّ في « الصغارْ » ، اقتضبها في الانشاد فوازنت القافيتين السابقتين في الرنّة الموسيقية . وكذلك يفعل اذا ما اعترضته النبرة المقتضبة في سلسلة من القوافي الممدودة فانه يشبع الحركة حتى يولّد منها حرف مَدّ ، واذا « باكَرْ » مثلاً تكرّن قافيةً تأتلف و« التامْ » .

كلّها من مظاهر معاونة الصوت للفظ في« الانشاد » ، تلك المعاونة التي لا يجوز ان تغفل عنها اذا درسنا الشعر الجاهلي القديم ، واساسه الانشاد الموسيقي، فاجتهدنا في ان نعلّلْ اصل الجوازات الشعرية.

١) المشرق ٢٧ [١٩٢٩] ٢٧٢

٢) شكري الخوري : التحفة العالية او قصة فنيانوس ، الطبعة الاولى ، ماناولو ، ١٩٠٢ ، ص ٦٧-٦٨

نسمع طرفة ينشد معلقته ، فيبدأ مرغماً :

لخولةَ أطلالٌ ببرقة ثهمد تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

فلا يتخذش حسنا الموسيقي ، حتى اذا رأينا هذا المطلع على الورق ، في عهد الأدب الكتابي ،

لخولة أطلال ببرقة ثهمد تلوحُ كباقي الوشم في ظاهر اليدِ

فقرأناه ، مجرّدًا عن النغم ، وعرضناه على الموازين العروضية ، استغربنا بعضَ الشيء مخالفتَه لما استخرجناه من تفاعيل دقيقة للبحر الطويل التامّ . فتردّدنا في الحكم عليه . ثم ، بدلًا من ان نقول ان الشاعر في انشاده ، كثيرًا ما كان يمدّ الحركة ليقيم الوزن ، نجزم مقرّرين : « يجوز في فعولن القبض فتُصبح فعولُ » ثم نتحقق كثرة هذا الجواز — بفضل النغم الانشادي اصلًا — فنزيد : « وهو مستحسن . »

امـا اذا كان هذا النقص الوزني اظهر من الماثل في مطلع طرفة ، كأن نقرأ مثلًا لامرئ القيس :

كلمع اليدين في حبيٍّ مُكلّلِ

او : امال السليطَ بالذبالِ المفتّلِ

او : كأنّ الباعَ فيه غرق عشيّةً

مما لا يسعنا ردّه الى الجوازات المألوسة ، فقد يقشعرّ له بدننا العروضي ، فنقول : « لقد أشبع الشاعر الحركة » ونكاد نزيد : « سامحه الله . » وهو في الحقيقـة لم يأتِ ما يستوجب اللوم او العذر او التنبيه ، لأنه لم يبنِ الّا على النغم كمنشدنا العامّي .

وكم من المطالع الجاهليّة وردت ناقصة حرفًا من أوّلها كقول عنترة :

هل عينا من رأى مثل مالكٍ عقيرة قوم ان جرى فرسان

وقول الحطيئة :

لمّا رأيتُ ان ما يبتغي القرى ، وان ابن أعيى ، لا محالة ، فاضحي ،

فحار العروضيون في ضياع هذا الحرف ، حتى اجمعوا على القول : قد ترد « فعولن » على « فِعلن » في ابتداء بعض المطالع الجاهلية . ولا نخالنا نجزل عن الصواب اذا تخيّلنا المنشد الجاهلي يبدأ بشيء من التنغيم قبل إنشاده يحثّ به قريحته ، او يجلو صوته ، حتى يستهلّ انشودته بنبرة لا معنى لها من مثل « أ » او « إ » او « أ » وما شاكل يسند اليها المطلع فيتنه نغمياً . أوَ لا نرى شبيهاً لهذا الأمر في « إنشاد » قوّالينا اذ يردّد بعضهم نبرةً لا معنى لها يمدّها ويطيلها مكرّرًا « أوف » حتى يُفتح عليه « بالردّة » المطلوبة ؟

ثم

هذا وظاهرة التكرير اللفظي والمعنوي من ميزات الادب السامي الاجمالية ، وكلّه انشادي في اصله . ولنا في اسفار الكتاب المقدّس الامثلة الواضحة ، ولا سيما في مراثي ارميا ، وحزقيال ، وفي نشيد الانشاد ، ومزامير داود . وهذا مطلع المزمور الخمسين يبدو فيه « إمام الغناء » الفكرة نفسها على مظهرين مختلفين ، وكأنّ هناك جوقتين من المنشدين تتقاذفانها كلّ بشكلها الخاصّ ، وغايتها مزيد الاقرار في ذهن السامعين :

ارحمني ، يا الله ، بحسب رحمتك ،	وبحسب كثرة رأفتك ، امحُ مساميّ ؛
زدني غسلًا من اثمي ،	وطهّرني من خطيئتي .
فاني عارفٌ بمساميّ ،	وخطيئتي امامي في كل حين .
إليك وحدك خطئت ،	وامام عينيك صنعتُ الشرّ ؛
لكي تعدل في كلامك ،	وتزكو في قضائك .
اني في الإثم وُلدت ،	وفي الخطيئة حبلت بي أمي .
انك احببت الحقّ في الافئدة ؛	وفي الخفية أعلمتني الحكمة .
تنضحني بالزوفى فأطهُر ،	تغسلني فابيضّ اكثر من الثلج . . . (١

ثم

وقد تأتي المراجعة اللفظية محطّة سجعيّة تسهّل اقرار المعنى في ذهن السامع » كما في بعض الآيات القرآنية ، ولا سيما مقطع « فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ،

١) المزامير ٥٠ : ٣-٦

المتردّد ٣١ مرة في سورة الرحمن ، ولعلّها ادلّ السور على النوع الانشادي لجمعها بين السجع والتكرير :

بسم الله الرحمن الرحيم
الرحمن علّم القرآن .
خلق الإنسان ، علّمه البيان .

الشمسُ والقمرُ بحُسبان ، والنجمُ والشجرُ يسجدان .
والسماء رفعها ، ووضع الميزان ؛ ألّا تطغَوا في الميزان ،
وأقيموا الوزن بالقسطِ ولا تُخسروا الميزان .

والأرضَ وضعها للأنام ؛ فيها فاكهةٌ ، والنخلُ ذاتُ الأكمام ،
والحَبُّ ذو العصف ، والريحان . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

خلقَ الانسانَ من صلصالٍ كالفخّار ، وخلق الجانَّ من مارج من نار .
فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

ربُّ المشرقين ، وربُّ المغربين !
فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

مرَجَ البحرين يلتقيان ، بينهما برزخٌ لا يبغيان .
فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

وله الجوارِ المنشآتُ في البحرِ كالأعلام . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

كلُّ من عليها فان ويبقى وجهُ ربّك ذو الجلال والإكرام .
فبأي آلاء ربكما تكذّبان ؟

يسأله مَن في السموات والارض كل يومٍ هو في شان . فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان ؟
سنفرُغُ لكم ، أيُّه الثقلان . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
يا معشرَ الجنّ والانس ، ان استطعتم ان تنفذوا من أقطار
السموات والارض ، فانفذوا . لا تنفذون الّا بسلطان . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟
يُرسل عليكما شُواظٌ من نارٍ ونحاسٌ : فلا تنتصران . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فاذا انشقّت السماء فكانت وردةً كالدهان ؛ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيومئذٍ لا يُسألُ عن ذنبه إنس ولا جانّ ؛ فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟
يُعرف المجرمون بسيماهم فيؤخذ بالنواصي والاقدام ؛ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟

هذه جهنّم التي يكذّبها المجرمون ، يطوفون بينها وبين
حميم آن . فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟

وان خاف مقامَ ربّه جنّتان ، فبأيّ آلاء ربّكما تكذّبان ؟
ذواتا أفنان . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهما عينان تجريان فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهما من كل فاكهة زوجان ؛ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
متّكئينَ على فُرُشٍ بطائنها من إستبرق وجَنَى الجنّتين
دان . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهنّ قاصراتُ الطرف لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانٌّ . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
كأنّهنّ الياقوتُ والمَرجان . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟

هل جزاءُ الإحسان إلّا الاحسان ؟ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟

ومن دونهما جنّتان ، فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
مُدْهامّتان ؟ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهما عينان نَضّاختان : فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهما فاكهةٌ ، ونخلٌ ، ورُمّان ؛ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
فيهنّ خيراتٌ حِسان ، فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
حورٌ مقصوراتٌ في الخيامْ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
لم يطمثهنّ إنسٌ قبلهم ولا جانّ ؛ فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟
مُتّكئين على رَفْرَفٍ خُضْرٍ وعبقريّ حِسان . فبأي آلاء ربّكما تكذّبان ؟

تبارك اسم ربك ذي الجلال والإكرام !

وهنا ايضاً يجدر بنا ان ننتبه للاتكال ، في السجعات ، على المقاطع النغميّة ، دون التقيّد بالتقفية التامّة ، فلا نستغرب ورود « الاعلام » ، و« الإكرام » و« الأقدام » في سجعات « تكذّبان » وما شاكلها .

❧

ولعلّ التسجيع اصلحُ الاساليب الانشادية في الإخراج ، وافعلها عملاً على اقرار المقطع في ذهن السامعين ، لما يوفّره من محطّات انشاديّة يستند اليها الخطيب « المنشد » في حفظه وإلقائه ، كما يستند اليها السامع في حفظه وتذكّره . ولهذا رأينا السجع في أسّ الأدب الشفهي عامّة ، وادبنا العربي الجاهلي خاصّة ،

سواء أُنسب الى الكهّان ، ام رُفع الى كبار الخطباء كقسّ بن ساعدة مثلاً ، ام جرى غفلاً على ألسنة العامّة في وضع امثالها ، ام ورد في القرآن على لسان النبي .

ومن صفات سجع الكهّان قِصر الجمل ، وتعدّد السجعة ، والإكثار من القَسَم ، مع شيء من الغموض والإبهام خليق بمن ادّعى الاتصال بالقوّات اللابشرية ، فاستنزل معرفة الغيب ، واستغلّ سذاجة قومه ومعاصريه .

قالت الكاهنة زَبْراء تحذّر بني رئام القضاعيين من هجوم اعدائهم بني ناعب وبني داهن :

والنّوحِ الشافق ، والليلِ الغاسق .
والصباح الشارق ، والنجمِ الطارق ،
والمزنِ الرادق ،
انّ شجر الوادي لِيأدو تَخْتلا ، ويحرق انيابًا عُصلا ؛
وان صخر الطور ليُنذر ثُكلا لا تجدون عنه مَعْلا . (١)

وكذلك حكم الكاهن الخزاعي في المنافرة بين هاشم بن عبد مناف وامّية ابن عبد شمس :

والقمرِ الباهر ، والكوكبِ الزاهر ،
والغمام الماطر ، وما بالجوّ من طائر ،
وما اهتدى بعلم مسافر ، من منجد وغائر ،
لقد سبق هاشم اميّة الى المفاخر ، أوّلٌ منه وآخر ؛
وابو ضِمضمٍ بذلك خابر . (٢)

ولا غرابة في ان يكون هذا « الحكم » موضوعاً على عهد العبّاسيّين في سبيل التقرّب من ولاة الأمر ، والدعوة لهم ، بتفضيل جدّهم على جدّ اعدائهم الأمويين . بيد ان ما يهمّنا من القطعة اسلوبها السجعي ، وطريقة تأليفها ، ولا بدّ ان يكون الواضع جرى فيها ، لتسير وتروج ، على الاسلوب الاصلي في

(١) القالي : الامالي ١ : ١٣٦
(٢) ابن الاثير : الكامل ٢ : ٦ ؛ السيرة الحلبية ١ : ٤

سجع الكهّان ، شأنه في ذلك شأن مزيّف النقود ، فانه اذا لم يُتقن التقليد ، ويُحكم المحاكاة ، بار زَيفُه وفُضح امره .

وهـذه الأيمان المسجّعة بظاهر الطبيعة الموردة لإقرار الأمر المقصود نراها تكثر وتتعدّد في بعض السور القرآنية ، ولا سيما المكيّة منها ، والقرآن اثبت نصّ وصل الينا من العهد الجاهلي ، واوضحه على الاسلوب الانشادي الشفهي .

جاء في سورة الفجر :

والفجرِ ، وليالٍ عشرٍ ،
والشفعِ والوترِ ، والليلِ اذا يسرِ ،
هل في ذلك قَسَمٌ لذي حجرٍ ؟ (١

وفي سورة الليل

والليلِ اذا يَغشى ، والنهار اذا تجلّى ،
وما خلقَ الذكر والأنثى ، ان سعيكم لشتّى ! (٢

وهناك القسم بـ « الضحى » ، و« العصر » ، و« السماء ذات البروج » ، و« التين والزيتون ، وطورسينينَ » و« الشمس وضحاها »

والشمسِ وضُحاها ، والقمرِ اذا تلاها ،
والنهارِ اذا جلّاها ، والليلِ اذا يغشاها ،
والسماء وما بناها ، والأرض وما طحاها ،
ونفسٍ وما سوّاها ، فألهمها فجورَها وتقواها ؛
قد أفلح من زكّاها ، وقد خاب من دسّاها !
كذّبت ثمود بطغواها ، اذ انبعث اشقاها ؛

فقال لهم رسول الله : ناقة الله وسقياها .
فكذّبوه . فعقروها . فدمدم عليهم ربّهم بذنبهم فسوّاها .
ولا يخاف عقباها .

وعلى هـذا النحو من الانشاء النبوي سائر السور المكيّة ، تتدافع فيها العواطف القوية ، والتخيّلات الرائعة ، فتبدو باخراج ايقاعي ، ونغم موزون ،

١) القرآن ٨٩ [الفجر] ١-٤
٢) القرآن ٩٢ [الليل] ١-٤

حافلة باتم الصفات في التعبير الانشادي ، من حس وخيال وموسيقى . وهي الشروط الاساسية في الشعر .

أوَ نستغرب ، بعد هذا ، ان نرى موافقة تامة بين اشطرنا العروضية الحالية وكثير من الآيات القرآنية ؟ واكثر منها تلك التعابير والمقاطع الموسيقية الموزونة على نغم ايقاعي لو ضُبط في درس شامل دقيق — كما دُرست القصائد الجاهلية — لأمكن ان يجرّد منه ابحر لم يفكر بها الخليل وأصحابه .

واذًا فليس القرآن بالشعر ولا بالنثر ، انما هو قرآن[1] . يعني انه اسلوب شفهي لا يُحدّد بالقواعد الكتابية التي ميزت مظهرَين في التعبير الفني ، فجعلتهما ، كلًا على حدة بنواميس ، مادّية يسهل اقرارها وتطبيقها في زمن الكتابة . ولكنها لا تُعرف في زمن تلك الفوضى الرائعة ، زمن الادب الشفهي . انما هو « قرآن » اي « إنشاد » ، « يُقرأ » اي يُتلى و« يُرتّل » موزونًا مُنغّمًا على جماعة لا يدوّنونه الّا في ذاكراتهم القويّة . شأنه في ذلك شأن سائر ما وصلنا من آثار العصر الجاهلي الادبية . تأليف شفهي يُلقى على جماعة شفهيين . فكيف يجوز لنا ان نحكم فيه مقاييسنا الكتابية ؟

كيف يجوز لنا ان نطبّق موازيننا الادبية الحاضرة — وقد وُضعت في زمن الادب الكتابي ، فعرضنا عليها آثارنا وصنّفناها في قسمين متباينين ستينا احدهما « شعرًا » والثاني « نثرًا » — على آثار ولدت قبل نشأة هذا التمييز ، في بيئة لم تعرف فرقًا بين الشعر والنثر ، ولا عهدت حدودًا بينهما كالحدود المادّية التي نعرفها اليوم ونقرّها .

أوَ لا نُدفع الى الشطط في فهم نشأة الفنون الادبية ، اذا طبّقنا هذه النظريّات الكتابية المتأخرة على ذاك العصر العريق في الشفهية .

---

(١) نشير الى قول للدكتور طه حسين ذكر فيه ان القرآن « لا هو شعر ولا هو نثر وانما هو قرآن » . فتهكّم به تلميذه الدكتور زكي مبارك ، زاعمًا « ان القرآن نثر ، وانه دليل على ان العرب كان عندهم نثر فني قبل الاسلام . » (راجع « المشرق » ٣٠ [١٩٣٢] ٢٢٥) قلنا : ان يكن الدكتور طه حسين قصد بجملته تلك ما شرحناه من اساليب « الإنشاد » السابق لظهوري الشعر والنثر المحدّدين تحديدًا كتابيًا ، فقد اصاب ، وطاش تهكّم تلميذه .

وإنّ مثلًا حيّاً جديداً يُضاف الى ما تقدّم من امثلة عديدة ، يؤيّد حتماً تلك الفرضى الشفهية الرائعة في العصر الجاهلي . لنأخذ واحدة من تلك الخطب الجاهليـــة القديمة . — وكلّ فنّان جاهليّ خطيبٌ في اعماق نفسه سواء أكان « شاعراً » مقفّداً ، ام كاهناً مسجّعاً ، ام واعظاً زاجراً — ولتكن خطبة قسّ بن ساعده مثلًا . ولا يهمّنا ان تكون صحيحة النسبة ام منحولة مزيّفة[1] . لأنّها ، ان كانت منحولة ، فلا شكّ ان ناحلها جرى فيها على امثلة متقدّمة مثلت في عرفه الخطب القديمة . واذًا فهي صورة لأصل مفقود . ونحن انما يهمّنا الآن ، وفي هذا الموضوع ، درس الاسلوب الانشادي ، سواء أظهر في الأثر الاصيل ام في الصورة المحافظة على خصائصه .

ندرس هذه الخطبة — ومثلها كثير — فنتحقق انها تبدأ بالسجع المتوازن . ثم تتّسع الفواصل وتتقارب شيئاً فشيئاً في ترتيب وقع النغمات ، حتى تصبح الجمل مقاطع متعادلة الطول ، متوافقة في موقع النبرات ، فتتحوّل الى اشطر عروضية تامّة ، وتتحوّل مواقع السجع الى قوافٍ سوِيّة . واذا « بالانشاد » ينتهي بالشعر الموزون ، كما نفهمه في عصرنا ، على ذمّة الخليل وتلاميذه :

ايها الناس ،

اسمعوا ، وعوا ،
انظروا ، واذكروا ؛
من عاش مات ؛ من مات فات ؛
وكلّ ما هو آتٍ آت !

ليلٌ داج ، ونهار ساج ،
وسماء ذات أبراج .

ألا ان ابلغ العظات السيرُ في الفلوات ،
والنظر الى محل الأموات !

---

(١) وهو بحث سنصل اليه في ختام هذا الدرس ، فنرى فائدة « الإنشاد » في التمسّك بشكل نسبة الشعر الجاهلي .

إن في السماء لخبرا ! وان في الأرض لعبرا !
مالي ارى الناس يذهبون ، فلا يرجعون ؟
ارضوا هناك بالمقام فاقاموا ، ام تركوا فناموا ؟

. . .

يا معشر اياد ،
اين الآباء والأجداد ؟ واين المريض والعُوَّاد ؟
واين الفراعنة الشداد ؟

اين من بنى وشيَّد ؟ وزخرف ونجَّد ؟
وغرَّه المالُ والولَد ؟

اين من طغى وبغى ؟ وجمع فأوعى ؟
وقال : انا ربكم الأعلى ؟

ألم يكونوا اكثر منكم اموالا ؟ واطول منكم آجالا ؟
في الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر !

لما رأيت مواردًا للموت ليس لها مصادر ، ورأيت قومي نحوها نحفي الاصاغرُ والأكابرْ ،
لا يرجع الماضي اليَّ ولا من الباقين غابر ، ايقنت اني لا محالة حيث صار القوم صائر [1]

أو يجوز ، بعد هذا ، ان نقول : لقد بدأ قسّ خطبته نثرًا وختمها شعرًا ؛ ونبقى بمعزلٍ عن الجهل بنشأة الفنون الادبية ؟

الا نرى إن الخطبة قطعة واحدة لا تقلّ شاعريتها ، — خيالًا وصورةً وموسيقى ، — في القسم الاول عنها في القسم الثاني ، هذا اذا لم تفقها . الا نرى ان موافقة مقاطعها الأخيرة لتفاعيل مجزوء الكامل ، لا يزيد شيئاً في ترشيحها للشعر .

لا هي شعر ولا هي نثر ، بالمعنى الاصطلاحي الكتابي . انما هي « إنشاد ». هي مظهر من مظاهر تلك الصلة ، بل تلك الوساطة ، بين الشعر والنثر

---

١) القلقشندي : صبح الاعشى ١ : ٢١٣ ؛ الاغاني ١٦ : ٤٠ ؛ ابن عبد ربه : العقد ٣ : ١٥٦ ؛ الجاحظ : البيان والتبيين ١ : ١٦٨ — وفي بعض الروايات اختلاف في ترتيب الخطبة سببه اهمال بعض الفقر ، او زيادة غيرها . — واطلب « المشرق » ٣٠ [١٩٣٢] ٢٨٥-٢٨٦

الاصطلاحيّين . هي من ذاك الفن الادبي الاصيل في بيئة لم تعرف هذه الفروق المادّية الواضحة التحديد في عصرنا .

لم يكن هوميروس شاعرًا ولا ناثرًا في إلياذته . ولم يكن سليمان الحكيم ، وداود النبي ، وسائر انبياء اسرائيل ؛ شعراء ولا ناثرين في اناشيده ومزاميره ، ونبوءاتهم ومراثيهم . ولم يكن المسيح شاعرًا ولا ناثرًا في خطبه وامثاله . ولم يكن « شعراء » الجاهلية او مقصدوها ، وخطباؤها وكهّانها شعراء ولا ناثرين في قصائدهم وخطبهم وسجاعهم . ولم يكن النبي شاعرًا ولا ناثرًا في القرآن . لم يكن جميعهم شعراء ولا ناثرين ، لأنهم لم يكونوا ليهتموا بشكل الشعر والنثر والفرق بينهما . انما كان لهم نوع واحد من الانشاء الفنّي الادبي السامي ، نوع يؤثر في السامعين فيحملهم على الانتباه ، فالاصغاء ، فالفهم ، فالحفظ الى ما شاء الله ، ألا وهو « الإنشاد » . كان فنهم إنشادًا ، وهم كانوا « منشدين » !

اما كيف سمّى العرب الجاهليون هذا « الإنشاد » ، وماذا فهموا بلفظة « شعر » ، فهو ما سنحاول درسه في القسم الثاني من هذا البحث ، وهو « الاسّ التاريخي » .

مطبوعات جديدة

في الشؤون الشرقية

JACQUES EDDÉ, Géographie Liban-Syrie, 5 édition. 1 vol. in 8°, 204 pp., 9 Cartes hors-texte et nombreuses Figures. Beyrouth, Imprimerie Catholique, 1941.

جغرافية لبنان وسورية

اشار الاستاذ فؤاد افرام البستاني ، في محاضرته الموفقة اثناء الاسبوع الاجتماعي المنعقد في بيروت (ايار ١٩٤١) ، الى فوضى الكتب المدرسية في لبنان. فان التلميذ يتيه في سني دراسته بين كتب تاريخ وجغرافية فرنسة وسائر البلدان الاجنبية ، ولا يقع على جغرافية « محلية » بالفرنسية الّا ليقال له ان بيروت « مرفأ سوري » ، او ان لبنان جزء من قطر مجاور ، كما اعلمنا منذ سنة واحدة تأليف حديث تؤيده علناً بعض الهيئات الرسمية. وقد انتبه جاك اده لهذا الخلل فاراد ان يزيله في الطبعة الخامسة لكتابه « جغرافية لبنان وسورية » الذي حدثنا عنه قراء « المشرق » منذ سنوات . أمّا اليوم فان المؤلف اعاد النظر في مجمل الكتاب وتقاسيمه وابرزه في حلة جديدة حافلة بمعالم الفن والعلم والوطنية.

تقسم الطبعة الجديدة الى اربعة اجزاء كبرى : لبنان ، سورية ، المصالح المشتركة بين لبنان وسورية ، الشرق الادنى. وفي كل من الجزئين الاولين درس مفصّل عن البلاد التي يختصّ بها الجزء: الطبيعة والسياسة والاقتصاد ؛ امّا الجزء الثالث الخاص بالمصالح المشتركة فيدور على التجارة وخطط المواصلات. وفي الجزء الاخير نبذة مختصرة عن سائر البلدان الشرق الادنى : سنجق الاسكندرون ، فلسطين ، جزيرة العرب . ان هذا التقسيم يبرز اولا الطبعة الجديدة عمّا تقدمها ويعطي فكرةً عن حسن ترتيبها .

اما المعلومات والاوصاف الواردة فيها ، فان غايتها واحدة : تعريف لبنان وما احاط به من البلدان الى الصغار والكبار. وقد توفق المؤلف في بلوغ غايته لأنه عرف ان يأتي بهذه المعلومات وهذه الاوصاف عن اصدق المصادر ، فلجأ في الفصول الخاصة ، الى المؤلفين او الاختصاصيين الثقات ، فنال معاضدة الاستاذ جوزف نجار — مدير مصلحة المياه سابقاً ، والاستاذ في معهد الهندسة ، ووزير المالية حالاً — في بحثه عن مياه لبنان وطرق الاستفادة من قواتها ، واستحصل على ادق الجداول والتفاصيل عن مناخ لبنان وسورية والاقطار في البلدين من مرصد كساره ، واعطى ارقاماً في المساحة مأخوذة عن دروس الدائرة الخاصة بهذه المصلحة . وصف جاك اده لبنان وسورية على ضوء هذه المصادر في لغة فرنسية سهلة ورصينة ، وقرّب الوصف الى ذهن القراء بالصوَر الشمسية العديدة والخرائط الملوّنة .

وهي في اكثرها حديثة لم تنشر قبل اليوم .

واذا ذكرنا ان الصورة والخارطة تعلمان التلميذ خير علم خصوصاً في الجغرافية ، ادركنا قيمة الجغرافية الجديدة وتوفيق مؤلفها بها .

ولا يسع القارئ ، عندما يطلع على الكتاب المذكور ، الّا ان يقرّ ان لا شبيه له بين التآليف الموضوعة حتى الآن في جغرافية الشرق ولا سيما جغرافية لبنان .

فخليقٌ بالحكومة اللبنانية الموقرة ، ان توصي المدارس باتخاذ هذا المؤلّف لتعليم تلاميذها فقد اقترن فيه العلم الصحيح بحب لبنان.

نجيب الدحداح

الوعي القومي

بقلم قسطنطين زريق

منشورات دار المكشوف ، بيروت ، ١٩٣٩ — ٢٤٠ صفحة متوسطة

يلاحظ الاستاذ قسطنطين زريق الفوضى الفكرية السائدة عند زعماء العاملين في حقل الوحدة العربية ، وعدم اكتراث الجماهير العربية لعقيدة تسير عليها نحو هدفها القومي ، والازمة الروحية المستحكمة بهذه الجماهير والمفرقة بين الاقطار والاحزاب العربية . ويقرر من جهة ثانية « ان ما من نهضة قومية تحررية قامت في العالم الّا وسبقتها او لازمتها نهضة فكرية مهدت لها الطريق » . فيأخذ على نفسه ، وهو العربي الصميم ، ان يلقّن الرأي العام العربي مبادئ عامة في القومية والجنس ، والتربية ، ودور المرأة الاجتماعي ، وحاجة العرب الى الادب التوجيهي ، الى غير ذلك من المواضيع المطروقة في فصول متنوّعة توّحد بينها غاية المؤلف وهي ان ترتفع العاطفة القومية العربية الى حيز العقل فتصبح « شعوراً يدعمه الفكر ، او بالاحرى فكراً يذكيه الشعور ، وتسري في جوانب النفس كلها ، فتملأها « وعياً قومياً » (ص ٢٢) . وفي كل من هذه الفصول افكار ناضجة وآراء مصيبة في المسائل الاجتماعية يستفيد القراء من الاطلاع عليها .

وقد خصّ المؤلف احد ابحاثه بالقومية والجنس — « على هامش الدعوة الى الفنيقية في لبنان » — فانتقد بكل صواب قول المغالين الذين ينسبون ابناء لبنان الى فئة دون الأخر من الجماعات التي سكنت بلادنا ، وقال : « ان كلا الفنيقيين والعرب لم يحافظوا بعد ان نزلوا هذه البلاد على النقاوة الجنسية النسبية التي كانت لهم . . . بل امتزجوا بالسكان السابقين امتزاجاً عظيماً اختلط به دمهم وجنسهم ، ولم يعد ممكناً ان نتحدث عنهم كوحدات جنسية ، بل كوحدات سياسية ، او اجتماعية ، او ثقافية فحسب » (ص ٩٢) ، وفي الصفحة التالية « لننظر الى اللغة ، والثقافة ، والعادات ، والذكريات التاريخية ، والمصلحة الحاضرة والمستقبلة » . ثم يوصي مواطنيه بان يهتموا بمستقبلهم ومصلحتهم فيه ، اكثر مما يهتمون بماضيهم ويبلون دمهم .

فوافق المؤلف كل الموافقة على هذه النظريات . غير ان الامر ينتهي به الى نتيجة متطرفة لم نكن ننتظرها لما عهدنا في المقدمات من الاعتدال ، فيقول : « ليس يخامرني شك في انه . . . لو بذل اصحاب العقائد القومية للتفكير القومي ما يتطلبه من تجرد واخلاص . . . لوجد اصحاب الفكرة الفنيقية انه ليس هناك ما يمنع — بل هناك ما يفرض — ان يذيبوا فكرتهم في الفكرة العربية الجامعة : هذه الفكرة التي تقوم لا على الجنس ، بل على الوحدة في اللغة ، والثقافة ، والجهاد الماضي ، والمصلحة الحاضرة ، والآمال المشرقة الى الامام » (ص ٩٥). نستغرب هذه النتيجة لما ذكرنا من اقوال المؤلف السابقة ولا سيما لما ورد في الصفحة ١٤١ : « كل من لا ماضي له لا حاضر له ولا مستقبل . والامة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها ان تحيا » . ويعلم الاستاذ زريق ان للبنانيين قابلية مشهورة لتعلم اللغات المختلفة ولاقتباس الثقافة الغربية ، تلك الثقافة المسيطرة على الاطلاق في ربوعنا والتي كانت اصلاً للدعوة الفنيقية في لبنان . ويقرّ ان ماضينا لم يتنفّ دائماً وفكرة القومية العربية (فيدعو الى نسيان الماضي) . فهل نخنق هذه القابلية ، وننكر تاريخنا ، ونسلخ انفسنا من كتلة المتوسط الابيض — واليها ننسب جغرافياً وروحياً — لنذيب شخصيتنا الخاصة في القومية العربية الموحّدة ؟

يطلب المؤلف منا ان ننظر الى مصلحتنا في المستقبل ، فنشاركه الرأي بفائدة الائتلاف بين البلدان العربية . ويطلب منا ان ننسى ماضينا وميزاتنا ، ولكن أوَ ليس هو القائل : « الامة التي لا تعنى بروحها لا يمكنها ان تحيا » ؟ ولا شك ان لكل من الاقطار العربية ، كما للبنان ماضياً وميزات ثقافية واجتماعية وطبيعية يختلف بها عن جيرانه . فلا يصحّ ان ننسب الاختلافات القائمة بين هذه الاقطار الى الازمة الروحية فقط . انما علينا ان نعترف بهذه الفوارق ، ونحترم ارادة كل قطر في المحافظة على تراثه الخاص ، وهو رأي الدكتور طه حسين في الوحدة العربية اذ قال عنها : « لا تنفع ولا تفيد الّا اذا احتفظت بالقوميات والشخصيات الوطنية والحريات الكاملة لاعضائها والسيادة التامة في حياتها الداخلية والخارجية ، وقامت على الحلف الذي لا يفني امة في امة ولا يخضع شعباً لشعب ، وانما يمكن

الامم من ان تتعاون على اساس ما يكون بين الانداد من المساواة » .

يذكر المؤلف هذا الرأي للتنديد به (ص ١١) . ولكن يجدر بنا ان نقف عند نظرية الدكتور طه حسين ، وهي قد تدلنا على الطريقة المثلى للتأليف بين الشعوب العربية اللغة : وهو ايجاد نوع من الحلف يعمل على التعاون الاقتصادي والسياسي والثقافي بين الاقطار العربية ، على ان يزداد هذا التعاون قوة وشمولاً بالتدريج فلا نذيب فكرة في اخرى ، بل نجتهد في الترفيق بين الفكرة الوطنية الخاصة وفكرة الائتلاف . لا سيما وقد علمتنا حوادث اوروبة الاخيرة ان الوحدة التي تتجاهل ما يكون بين اعضائها من الفوارق تلبث مزعزعة الاركان فتنهار حالما تهب العاصفة الاولى .

نجيب الدحداح

مباحث عربية

تأليف بشر فارس

مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٩

هذا الكتاب توطئة لرسالة اكبر حجماً واخطر قدراً لا تزال تحت المراجعة والتدقيق سيظهر بها المؤلف على الناس قريباً — ان لم يكن قد فعل .

ان امرَين يسترعيان الاهتمام في الكتاب: محتوياته والمنهج . اما المحتويات فهي بضع محاولات وجيزة : منها لغوية ترمي الى استخلاص معاني بعض الالفاظ من النصوص التي وردت فيها ، وبيان تسلسلها وتشعبها ، كالمروءة والشرف ومكارم الاخلاق . . . ؛ ومنها اجتماعية للتحقق في امرها من قيمة بعض الاراء فيها كالتفرد والتماسك عند العرب ، والبناء الاجتماعي عند العرب . اضف الى ذلك نبذة عن مُسلمي فنلندة . واكثر هذه المباحث كان قد نُشر في لغات اوروبية .

ثم يلجأ المؤلف الى الاجتهاد لاستحداث كلمات تؤدي معاني عصرية جديدة . فلقد يجد القارئ منها هنا بعض عشرات الكلمات المستحدثة اكثرها مُستاغ

مقبول . كالسرد والأخذ والمساوقة والتفرد والتماسك الخ . . . tableau, appendice, accompagnement, individualisme, solidarité.

اما المنهج — وهو الاهم بلا ريب في نظر المؤلف اذ نراه يهدي هذه المباحث الى « انبعاث الروح العلمي الخالص في مصر والشرق العربي » — فهو المنهج العلمي المحض الذي يعتمد « على المشاهدة قبل الفرض ، والتحقيق دون التخيل ، والموضوعية دون الذاتية ، واقامة الدليل دون القناعة بالمقبولات والمسلّمات ، ثم الذهاب من المركّب الى البسيط ومن الخاص الى العام ، مع تسليط النقد النافذ . . . » وهذا امر جديد عن كتبة العربية نرحب به ، ونرى المؤلف جديراً ان يبرز فيه . ويكفل له النجاح فيه اطلاعه على مذاهب العلماء الاوروبيين واعتقاده بصحة المنهج الموضوعي .

غير انا لا نخفي انا نخشى عليه المغالاة والسقوط في التطرف المذموم الذي سقط فيه الغربيون فيذهب في ذلك ابعد منهم . فان في هذا المنهج قشراً ولبّاً ، والجمع القصد بين الاثنين امر على جانب من الدقة . فنأخذ على المؤلف بعض الاغراق في التفاصيل والاكثار من جمع الشواهد حيث لا يفيد التفصيل والاكثار شيئاً سوى اثارة الملل في نفس القارئ . ثم نرى بالمؤلف عن الافراط في الاعتداد بالمحسوسات والملموسات فانه لا تزال للعقل اهمية كبرى في تأويل الشواهد الموضوعية مهما كثرت . فاذا ما اعار هذه النقطة الاخيرة الاهتمام الذي يليق بها ، خفّف من حدة المهاجمة عندما يتصدى لمن خالفه في الرأي واستبغ على المنهج العلمي الهدوء والبرودة المبتغاة . الا انا نثني على الاسلوب العربي الواضح الفصيح الذي تُقبل عليه النفس بانشراح رغم تجرده عن كل تزويق .

ي . ع .

على هامش التاريخ المصري القديم

تأليف عبد القادر حمزه باشا

المجلد الاول – ٣٤٠ ص. كبيرة – ٢٥ صورة و٣٢ لوحة منها ٦ ملونة . مطبعة دار الكتب المصرية ١٩٤٠ – الثمن ٣٠ قرشاً مصرياً

يقصّ علينا المؤلف في مقدمة الكتاب كيف اتى على وضعه ، بعد ان كان لا يبالي الكثيرون من مواطنيه بتاريخ مصر القديم وآثارها. زار الاقصر وطيبة فانكشف له الستار عن مجد الفراعنة اسلافه ، فانكبّ على درسه خجولاً لجهله تاريخ بلاده ، بينما يرى الأجانب يتسابقون الى مصر ويقفون حياتهم على كشف اسرار هذا التاريخ ثم اعتذر المؤلف عن سرده للقراء قصته هذه بقوله :

وقد قصصت قصتي هذه في انسيابي الى التاريخ المصري القديم لاني اعرف أن شيئاً منها يوشك ان يكون صورة لما ينشأ عليه – مع الأسف – جميع المصريين. فهم يجهلون هذا التاريخ لانهم لم يقرأوا منه وقت تحصيلهم العلم غير اشياء ضئيلة مبهمة ، وهم بعد وقت التحصيل لا يجدون في هذا التاريخ مؤلفات عربية تجذبهم اليه ، وتسد النقص الذي اعترى تربيتهم الاولى فيه . وهكذا ينشأ المتعلمون منا وكل الذين يعرفونه عن تاريخ مصر القديم لا يزيد في مجموعه على ما يعرفونه عن اليابان في آسيا أو عن كندا في اميركة . وقد يعرفون عن انكلترة أو عن فرنسة في ماضيها وحاضرها اكثر مما يعرفونه عن مصر . وبهذا تنقطع الصلة بين مصر القديمة ومصر الحديثة ، ويمتنع علينا ان نأخذ عن أمسنا ليومنا وغدنا ، والانسان الذي يعيش منقطع الصلة بامسه كالنبات الغريب ينمو ثم يموت وكأنه لم يوجد .

والآراء متفقة على ان التاريخ أعظم مهذب للأفراد والشعوب . فاذا كان هذا التاريخ تاريخ مجد لم يسبقه مجد امة اخرى ، فهو لابناء هذا المجد أعظم محيٍ الشعور بالعزة القومية ، وأقوى ملقن للفضائل الوطنية والاجتماعية . ولعل هذا هو بعينه الذي دفع بالانكليز ، حينما كانوا مسيطرين على التعليم ، الى ان يخرجوا منه تاريخ مصر القديم ، أو بعبارة ادق إلى ان يجعلوه فيه شبحاً بغير روح . ولكن هذه السيطرة وقعت منذ سنين ، وصار لنا أن نضع كما نشاء مناهج التعليم ، فحقاً انه لتقصير منا أننا لم نعن بعد عناية جدية بسد هذا النقص المعيب .

ثم اردف :

إن الناشئ في انكلترة أو في فرنسة أو في المانية أو في غيرها من البلاد الراقية ينشئ وتاريخ بلاده يسايره في كل سنة من سني تعليمه . فلا يكاد يغادر مقاعد الدرس حتى تكون

نفسه قد انطبعت بطابع ما في هذا التاريخ من عظمة وجمال . ومن هذا الانطباع يتولد حب خاص للوطن ، وتتولد رغبة في محاكاة أبطاله ، وينمو تبعاً لذلك الشعور بالقومية وتتربى أو تقوى فضائل الاقدام وسمو النفس ومجالدة المخاطر والميل إلى طيب الاحدوثة . ومن عجيب أمر التاريخ انه يولد هذه الفضائل كلها سواء كان تاريخ مجد وسطة في الغنى والسلطان ، ام كان تاريخ متاعب ومكاره وآلام . وقد عرفت الامم الراقية ذلك فجعلت من تاريخها القومي أول عامل في تربية الفضائل النفسية وإبراز صفات الرجولة . أما نحن فقد جهلنا هذا فصار الناشئ منا ينشأ وهو لا يرتسم في ذهنه عن مصر القديمة غير خيال مبهم ، واذا اتفق له ان عرف شيئاً عنها فليس هذا الشيء سوى صورة مشوهة تختلط فيها الخرافات بالأخطاء ، وبذلك يفقد التاريخ المصري روحه ، ويتعذر عليه أن يتحدث الى النفوس حديثاً يقوّمها ويربي الفضائل فيها .

هذا رأي المؤلف ، وما اشبه ما يشكو منه بما نعانيه في لبنان . واما كتابه فهو عبارة عن مقالات نشرت تباعاً في جريدة البلاغ المصرية فاستحسنها القراء وجمعها المؤلف بعد تمحيصها وتكميلها تناول فيها مواضيع متنوّعة بلا رابطة جوهرية تربطها وهذه هي :

المدنية المصرية ، هل نبتت في مصر او طرأت عليها من الكلدان ؟ — التقويم المصري — معركة بين الكنيسة والآثار المصرية — عقيدة الحساب بعد الموت — المدنية اليونانية واثر المدنية المصرية فيها — اقتباسات هوميروس من الاساطير والآداب المصرية — قصة الغريق — رسائل سياسية وغير سياسية في عهد الاسرة الثامنة عشر ، بين ملوك مصر وحكام فلسطين وسورية — ملحق التقويم المصري

وقد برهن المؤلف في مقالاته هذه عن دقة في البحث وسعة في الاطلاع العلمي يستحقان المدح ومن امثال الاعتقادات الباطلة والخرافات التي فندها رواية عروس النيل التي نقلها المؤرخون العرب مسندين الى الخليفة عمر بن الخطاب ابطال تلك العادة الهمجية عند الفتح الاسلامي ، فقد ابان المؤلف بالادلة التاريخية الساطعة ان لا أثر لمثل هذه الخرافة عند المصريين لا بعد ولا قبل الفتح (ص ٢٣—٣٢) .

بقي هناك موضوع خالفنا المؤلف في طريقة عرضه ، وان وافقناه في جوهر

الحوادث المروية ، وهو ما قاله في المعركة بين الكنيسة وعلم الآثار المصرية (ص ٦٩—٨٩)

فانه كان شائعاً في الكنيسة سابقاً ان تاريخ الانسان لا يرتقي الى ابعد من ٦٠٠٠ سنة ، ولكن هذا الاعتقاد لم يكن من عقائد الكنيسة ، بل من باب التفاسير الخاصة لنصوص الكتاب المقدس ، كما كان الاعتقاد مثلاً في القرون الوسطى قبل غليلاي ان الشمس تدور حول الارض ، وذلك اعتماداً على حادث يشرع في الكتاب المقدس . وكانت الكنيسة ولم تزل حريصة على علم التفسير وما يلحق به لمنع الآراء السخيفة من تشويش معتقد المؤمنين . فلما اتضح علمياً ان الآثار المصرية ترقى لا شك الى أبعد من ١٠,٠٠٠ سنة او اكثر كان ذلك دافعاً الى اعادة النظر في بعض تلك التفاسير . ومن المسلّم به ان ارقام التوراة لا تعني سنين واسابيع ، كما نحسبها نحن الآن ، ثم ان التوراة لا تقصد الى ضبط علم التاريخ او علم الفلك ، او غيره من العلوم التي لا دخل لها بالدين والآداب ، بل سرد الحوادث كما كانت تتمثل لعرف الناس في ذلك الزمن . وبالفعل نرى ان هؤلاء العلماء الذين اكتشفوا تلك الآثار المصرية ومنهم شامپوليون الكبير واستنتجوا منها قدم الانسان خلافاً للمعتقد السائر كانوا من أخلص ابناء الكنيسة ، ولم يعتبروا ان في ابحاثهم العلمية هذه أدنى تضادّ لعقيدتهم الدينية او اقل خطر عليها . واليك قول احدهم عمانويل ده روجه Emmanuel de Rouget كما ورد في الكتاب نفسه :

« إن مبادئنا لا تسمح لنا بان نتهم المسيحية بأنها تتزعزع اركانها من جراء تقدم علم أيّاً كان . ونحن على تمام اليقين من أن سلسلة التواريخ المصرية ، مهما يكن القدم الذي تنتقل إليه ، ستأخذ مكانها في العلم الحديث ، بجانب العلم الذي يبحث في القوانين الخاصة بسير الكواكب ، وبجانب العلم الذي يبحث في كيفية تكوين طبقات الارض ، من غير أن يكون ذلك سبباً إلى الايمان المسيحي » .

ونزيد ان الكتاب مزين بالصور الكثيرة التي تسهّل للمطالع مأخذه وتكسبه رونقاً جذاباً لا سيما الصور الملوّنة منها وقد جاءت آية في الفن تشهد بدقة العمل بمطبعة دار الكتب المصرية .

ر . ش .

دراسات في تاريخ الترجمة في الاسلام

بقلم پ. كراوس

المقالة الاولى : كتاب الاخلاق لجالينوس . بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب ، المجلد الخامس ، الجزء الاول ، القاهرة ، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية ، سنة ١٩٣٩ ، ٢٢ صفحة حجم كبير .

يُعَدّ پ. كراوس الاستاذ في الجامعة الملكية المصرية الآن من مشاهير العلماء المختصين بالعلاقات بين الثقافة العربية والثقافة اليونانية فله في ذلك مقالات ودراسات عديدة كلها قيّمة محشوّة بالمعلومات الواسعة النفيسة وهو الآن يوافينا بمقالة اولى في تاريخ الترجمة في الاسلام تدور حول كتاب الاخلاق لجالينوس الطبيب اليوناني وهو مأخوذ عن مجموعة محفوظة في مكتبة المرحوم احمد تيمور باشا وكانت سابقاً في حوزة الاديب المرحوم جرجس بك صفا في بيروت وقد وصفها الاب لويس شيخو وصفاً مطولاً في مقالة نشرت ضمن مجموعة عنوانها المجلة موتمر المستشرقين في باريس سنة ١٨٩٧ واعاد صاحبها جرجس بك صفا وصفه ذلك في السنة الـ١٩١٣ في مجلة المشرق ص ١٧٣ اما مختصر كتاب الاخلاق فلم يتنبه الاب شيخو الى اهميته لظنه انه كتاب معروف اصله اليوناني فلا يستحق النشر والحقيقة غير ذلك فكتاب الاخلاق لجالينوس لم ينشر بعد لا في اصله اليوناني ولا في ترجمته السريانية او العربية . والنص الذي عني بنشره الآن الاستاذ كراوس ليس بنص الكتاب بكامله ولكنه مختصر له منسوب على رأي الناشر الى ابي عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي المتطبب المترجم معاصر الوزير علي بن عيسى وقد يكون مترجماً عن الترجمة السريانية لحنين بن اسحق الشهير .

والنصّ الذي عني بنشره الاستاذ كراوس مضبوط بغاية الدقة ومصحوب بملاحظات ومراجعات عديدة تدل على سعة اطلاع الناشر على المخطوطات العربية .

و . ش .

Discursos pronunciados por el alto comisario de Espana en Marruecos Coronel Beigbeder y por el eminente Filosofo Libanes Prof. Amin er-Rihani, 1 fasc. in-8°, 40 p. Larache, 1940.

خطابان خطيران القاهما المفوض السامي الاسباني في المغرب السيد خوان بيكبدر والاستاذ اللبناني المرحوم امين الريحاني في الحفلة الادبية التي اقامها معهد الدروس المغربية في تطوان بتاريخ ٢٠ يونيو سنة ١٩٣٩ بمناسبة تسمية الاستاذ الريحاني مديراً شرفياً لمعهد الدروس المغربية ومنحه وسام المهدي من درجة سمو. واهمية الخطابين سياسية اكثر منها ادبية وقد حملت روح المجاملة المعهودة في مثل تلك المحافل الكولونل بيكبدر الى ان يقول : « الآفاق غير محدودة وانظارنا وطموحنا لا حدّ له ولسنا نرغب فقط في ان تنبعث قرطبة وفي ان تعود العربية لغة الثقافة العالمية كما كانت في العصور الوسطى بل اننا لنحلم بايجاد وئام وتضامن وعلاقات وثيقة بين الثقافتين اللاتينية والعربية » فامل كل ناطق بالضاد ان تعود لغته قابلة مثل غيرها لنقل الثقافة العالمية ويكفيها في ذلك فخلًا .

ر . ش .

Edouard Herriot, Sanctuaires. 1 vol. in. 8°, Paris, Hachette 1938.

المعابد

هذه المعابد هي «معابد مصر وفلسطين وسوريا» اي معابد الشرق الادنى حيث نشأت الاديان العظيمة الشان. واذ كان السيد هريو شغوفاً بكل ما يتعلق بالماضي اراد ان يعرج على كل هذه المعابد الشهيرة ويقف امامها خاشعاً ومحاولًا ان يستوحيها سرّ عظمتها . فتراه يقف وقفة طويلة امام مصر واسرارها فتبدو له ولها دين قائم اساسه الجهر بالله واحد وخالق وذلك منذ ١٥٥٠ سنة قبل الميلاد: «سلام لك يا سيماً لدعاء المحزون ، انت العطوف على من يفزع اليك. انك الوحيد مبدع كل موجود ، الوحيد الاوحد خالق كل مخلوق. إنا نعبد ارادتك لانك انت صانعنا.» (نشيد امون را) . وهناك نصوص تشهد بسمو اخلاقية سامية ، كما ان اخرى تدل على الايمان بالدينونة الاخيرة وبعقائد سياسية واجتماعية جد ناضجة.

كل هذا يبعث في السائح الشهير اسمى الاعجاب ويجيب اليه مصر هذه

القديمة التي يكاد السائح المتسرع لا يرى منها الا عظمة هياكلها التي تتحدى الاجيال. كما انه يستبشر بظاهر النهضة المصرية الحديثة، تلك النهضة التي ساهمت المبقرية الفرنسية فيها بنصيب وافر.

وراح يستطلع معابدَ العلم بعد معابد الآلهة التي كانت لها حملة نابوليون بمثابة حجر الاساس بفضل نخبة العلماء الذين رافقوه وهم اشبه شيء بـ« موسوعة جوّالة ». وهنا يتلذّذ اليوني بتعداد اسماء الليونيين منهم: الكولونيل سيف، المعروف باسم سليمان باشا منظم جيش محمد علي والعلماء فيكتور لوري، ولورتي، وجايار وموري. ويذكر كذلك مويلر ذلك الرجل الفذ جد الطيران الذي قضى نحبه فقيرًا معدماً في احد البيوت الحقيرة في القاهرة.

ثم يذهب بنا المؤلف الى مصدر التوحيد الى فلسطين، هذه البقعة العجيبة التي لا تزال آثار الماضي بادية على صفحتها. ويحاول ان يمثر على ما تبقى من آثار العهد القديم ومن آثار المعلم الناصري ولقد باشر جولته بروح الاخلاص وبرحابة صدر. الا انه اتخذ له دليلًا، لسوء الحظ، چنيبير في مؤلّفه « يسوع ». فاغراه واضله السواء. غير ان ذلك لا يمنعه عن ان يأخذ عليه شكه المرذول، مثلًا ص ٢٠٧ عند كلامه على المؤرخ اليهودي يوسف.

بعد ذلك ينتقل الى لبنان، الى بستان ادونيس، الى بعلبك حيث علّم السوريون روما البناء وفقاً لرسم منظّم يكون قوامه محور تتقابل على جانبيه وتتعادل اجزاء البناء. فما عتّمت ان صارت هذه النظرية القاعدة الاساسية لكل بناية رومية. وبالنظر الى هذا التجديد يبدو فوروم روما، على عظمته، مضطرباً لا يسوده نظام، كما ان اكويول اتينة ذاته لم يوضع لنقوشه رسم شامل. اما ابولودور السوري، مهندس الجسر الجبار على نهر الدانوب، فانه لما دُعي الى رومة لاقامة عمود تراجان والكنيسة اوليبا، قد جاء بهذه النظرية وطبّقها على ما بنى في السنة ٢٢٨.

وزرنا بعد ذلك في دمشق امام النهضة الاسلامية، وينتهي الكتاب بنغمة من التفاؤل بمستقبل شعوب الشرق الادنى.

ان السيد هريو احسن الملاحظة الشخصية وزاد فاحسن الاصغاء الى الادلاء.

الذين خفروا لخدمته ومرافقته. فظفر بفن عجيب ما سمع منهم وما لاحظ بنفسه من علم آثار وتاريخ واديان واجتماع فجاء كتابه رشيقاً لذيذاً ومفيداً .

ر. ش.

ALBERT CHAMPDOR, **Terres et Dieux de Syrie**, 1 vol. in. 8°, 210 pp. 12 illustrations dans le texte, Paris et Neuchâtel. Victor Attinger, 1938.

اراضي سورية وآلهتها

يدوّن المؤلف في هذا الكتاب ما شاهد بام عينه وما اثارت فيه مشاهداته من العِبَر اثناء رحلة قام بها في سورية. ويستدل من العنوان ان ما استلفت اهتمام المؤلف هو الجانب الديني سواء الحاضر او الماضي ، في هذا الشرق ، مهد الاديان الكبرى في العالم. فخص صفحات عديدة بانطاكية ، وبدراويش بابل ، ومجفلات مكة الدينية وبعلبك عاصمة الآلهة وبعبّاد الشيطان . وكذلك تكلم عن الاسلام السوري وعن دين الدروز .

ويصعب على من يطرق مواضيع الى هذا الحد مختلفة ان يكون المامه بها وافياً . لذا نراه عندما فاتته المشاهدة الشخصية ، راح يستعين بكتب ليست دائماً من طبقة يؤمن الاستناد اليها . فكثيراً ما يودّ القارئ لو ان المؤلف دل على المصادر التي استقى منها ويسّر له التحقق مما اورد. على انه يظهر ان المؤلف لم يتحرَّ الامانة والضبط في ذكر الحقائق بقدر ما تحرى الطرافة والجدّة . والا فكيف كان يصح ان يجمع اشياء مختلفة كالدراويش وانطاكية ومكة ودمشق وبعلبك تحت عنوان واحد يسميه « ما بين النهرين » وذلك في الفصل الاول ؟

ر. ش.

La Terre Sainte et les Franciscains. Jerusalem, Typ. des PP. Franciscains.

الاراضي المقدسة

كتاب صغير لا يزيد على ١٠٠ صفحة يستعرض اهم ما جرى من الحوادث عند نزول الآباء الفرنسيسكان الارض المقدسة. ومن المعروف ان الفضل يرجع في قدومهم الى فقير اسيز القديس فرنسيس اذ اوعز الى الاخ الياس في مجمع

١٢١٧ بانشاء دير للفرنسيسكان في الشرق. فاسس هذا دير عكا الصغير. وقد زاره القديس سنة ١٢١٩. ثم تلاه تأسيس دير في دمياط ثم بنيت ادبرة اخرى تكاثرت منذئذٍ في جهات مختلفة. ولم يكن لارض السلام ان تخلو يوماً من الاضطرابات والقلاقل والمشادات المنوعة. غير ان هذه الحالة لم تحد من عزم الاخوة فتشبثوا بالارض المقدسة في ثبات وصبر وجهاد. وكان جزاؤهم انهم توصلوا الى الاحتفاظ بالتراث المسيحي رغماً عن كل ما اعترضهم من العقبات التي طالما اودت بحياة البعض منهم، فاستحقوا ان يُدعَوا — وهم حقاً كذلك — حُرّاس الاراضي المقدسة.

ر. ش.

منشورات مختلفة

الفيزيقا الحديثة، حاضرها ومستقبلها

تأليف احمد فهمي ابو الخير

مطبعة المقتطف القاهرة ١٩٤٠، ١٧٦ صفحة، قطع متوسط

اهدت الينا دار المقتطف كتاباً في «الفيزيقا الحديثة، حاضرها ومستقبلها» من وضع الاستاذ احمد فهمي ابي الخير، يتناول الاستاذ فيه ذلك الفتح العظيم الذي تم لعلم الفيزياء في الخمسين سنة الاخيرة على ايدي النوابغ الافذاذ امثال كلفن وماكسويل وطمسن وغيرهم... فيشرح النظريات الحديثة في الذرات وتركيبها والقوى الكائنة فيها ويبحث في الموجات الاثيرية كاشعة إكس والضوء فوق البنفسجي والموجات الكهربائية الطويلة، فالجاذبية والنسبية، فالميكانيك الحديثة الى ما غير ذلك.

ثم يتصدى الحاضر الى المستقبل فيتكلم عن تلاقي الابحاث الفيزيقية والبيولوجية والبسيكولوجية وتعاضدها على حل الالغاز الهامة التي حيّرت العقل البشري منذ نشأته اعني ماهية المادة والحياة والعقل. فيعدنا المؤلف بان العلماء سيعرفون قبل سنة ١٩٥٠ اهم العوامل التي تؤثر في دالة الحياة وانه ستكتشف وسائل غير ضارة لزيادة الوثوب الحيوي فتقل مثلاً مدة الحمل حتى تصل الى

نهايتها الصغرى الطبيعية ويكون تجديد الشباب مأموناً ونافعاً ولكن لا كوسيلة لمحاولة الخلود والتغلب على الموت ؛ وتحمى امراض كالسرطان والزهري ! . . مَدّ الله حياة مؤلفنا وقرائنا الاكارم حتى تعقد هذه الزهور فيجنوا من ثمارها الشهية .

هذا مجمل ما جاء في كتاب الاستاذ فهمي ابي الخير ، اما كيفية شرح المسائل العويصة التي يتضمنها فبعدم استخدام القوانين الرياضية وبعرض النظريات دون مناقشة على ابسط وجه ممكن جاعلاً بذلك كتابه قريب التناول لمعظم من لهم بعض الالمام بالعلوم ؛ وقد تلذ مطالعته بنوع خاص لحملة البكالوريا الذين يرغبون في الوقوف على عجائب الفيزياء الحديثة . وإنا لهم من المحبذين .

ع . ا .

الحرية

تأليف ستانلي موريسون م . ع . (اكسفورد)

صدر عن دار الشرق والغرب في القاهرة ١٩٤١ — ١٢٤ ص . قطع صغير

ان سببين رئيسيين حملا الناشرين على وضع هذا الكتاب وهما اولاً كما ورد في المقدمة ان الحرب القائمة الآن ليست حرباً بين الجيوش المتقاتلة فحسب بل ولكنها نزاع محتدم بين نظريات وآراء في الحرية والعدالة يصدم بعضها بعضاً وانظمة من الحكم متنافرة متعادية وفلسفات من الحياة متنابذة قسمت العالم الى معسكرين كبيرين وخلعت مؤثراتها على نظم الجماعات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والاخلاقية بل حتى الروحية .

والسبب الثاني هو الاعتقاد بان كثيراً من المبادئ والاوضاع والانظمة الحالية لا بد ان يطرأ عليها تغيير كبير . فالنزعة القومية مثلاً التي توّجتها الحرب الكبرى الماضية ستبدل بنزعة جديدة ارقى منها الا وهي النزعة العاطفية الانسانية التي توفق بين مصالح الامة الواحدة ومصالح الامم جميعاً وترى خير الامة من خير الانسانية .

وجاء الكتاب بشروح واضحة عن هذه الافكار مبيناً واجب التعاون

الدولي وعارضاً الاقتراحات لانشاء نظام عالمي جديد وتكوين عصبة للامم على اسس قوية وختم بحثه بفصل عن الحاجة الى تجديد روحي عام لولاه اذهبت كل المساعي ادراج الرياح ولا يتألم العالم اليوم الا من تغلب المادة على الروح .

ر . ش .

مقالات

في اوصاف الله تعالى وكمالاته – في لاهوت يسوع المسيح – في الوهية الروح القدس – في الثالوث الاقدس – في خلود النفس – في القيامة الاخيرة ، مطبعة الادب بيروت ١٩٤١ ، ٦٨ ص . متوسطة .

أصدرها صاحب الغبطة مار انطون بطرس عريضه بطريرك الطائفة المارونية الجزيل الطوبى

جاء هذا الكراس مختصراً مفيداً عن أهم المعتقدات المسيحية معروضة بطريقة سهلة واضحة واسلوب عربي فصيح يجد فيها المؤمن بل الكاهن نفسه منافع شتى لايمانه ولعبادته . وقد ختمت هذه الدراسات الصغيرة بخلاصة في القيامة الاخيرة والحياة الابدية وما أحوجنا في ايامنا هذه الى الحقائق التي تجد فيها النفس قوة وسلوانا .

ر . ش .

S. E. Mgr Thamer Toth, Mariage et Famille. Sermons et Conférences, Traduit du hongrois, par l'Abbé Marcel Granoclaupon, 1 vol. in-8°, 288 pp., Mulhouse, éd. Salvator, Paris, éd. Casterman, 1939.

الزواج والعائلة

للمؤلف السيد تهامر توت الاسقف المجري كتب نفيسة تبحث في الحياة العائلية لا سيما ما اختص منها بالشبيبة في جيلنا الحاضر والاخطار المحدقة بها من الناحية الاخلاقية وقد اشرنا في اعدادنا السابقة الى كثير منها واما الكتاب الموصوف هنا فهو عبارة عن عظات ومحاضرات شرح فيها السيد تهامر توت ما هي عقيدة الكنيسة الكاثوليكية في سر الزواج وما تفرضهُ من واجبات على العباد . وترجمة الكتاب فصيحة سهلة المأخذ تقرب هذه التعاليم العالية الى افهام الجميع .

ر . ش .

Les Missionnaires du Travail, Plaquette de 24 pages, Paris, Bonne Presse, 1940.

رسل العمل

تسمى الكنيسة في الاوساط العاملة التي تسربت اليها الروح الشيوعية ففصلتها عن الدين المسيحي وافشت فيها روح اللادينية الى ان تعيد فيها روح الايمان وقد نوّه احبارها مراراً في رسائلهم بالمبادئ المسيحية الملائمة للحياة الاجتماعية الجديدة وهذه فصيلة من الرسل عكفت على التبشير بالانجيل بين العمال وادخال روح المحبة والعدل في اوساطهم . ر . ش .

Mme Marteau de Langle de Cary, Les Saints du Calendrier, Janvier, 1 vol. illustré. Grand in-8°, 164 pp., Paris, Plon 1940. Prix : 18 fr.

سيرة القديسين لايام السنة : كانون الثاني

كتاب لذيذ للصغار والكبار يورد سير القديسين يوماً فيوماً باسلوب سهل وشروح وافية وقد تجلّى بصورة خاصة بكل واحد منهم فتتمنى من المؤلف مواصلة عمله فتتم الفائدة . ر . ش .

Abbé Th. Moreux, Où sommes-nous ? Nouvelle édition entièrement remise à jour. 1 vol. in-8°, 224 pp., 106 gravures. Paris, Bonne Presse, Prix : 15 fr.

اين نحن ؟

أصبح المؤلف وهو مدير مرصد مدينة بورج في فرنسة من مشاهير الكتّاب الذين قرّبوا العلوم الفلكية لعامة الشعب فبعد كتاباته : من اين أتينا ؟ والى اين نذهب ؟ ومن نحن ؟ جاء بكتابه هذا الاخير : اين نحن ؟ وهو ليس بجديد ولكنه جدد طبعه وضبطه كل الضبط بمقتضى الاكتشافات الاخيرة — فجاء قريب المأخذ سهل الفهم يصف بدقة ما في الافلاك من بدع وغرائب يدهش لها العقل البشري — وفي الكتاب تصاوير عديدة تزيد به رغبة ولذة .

ر . ش .